ترجمات

قصص أرمنية

ترجمة: نانسي سمير

89

عندما يموت العالم برفق

ترجمات

إشراف: **ياسر شعبان**

عندما يموت العالم برفق

ترجمة: **نانسى سمير**

الطبعة الأولى، ٢٠٠٢

٦ (ب) شارع قصر النيل، القاهرة

تليفون / فاكس: ٥٧٥١٥٠٠ (٢٠٢)

merit56 @ hotmail. com

المدير العام: **محمد هاشم**

الغلاف: **أحمد اللباد**

رقم الإيداع: ٢٠٠٢/٣٢١٤

الترقيم الدولى: **977-351-028-X**

قصص أرمنية

عندما يموت العالم برفق

ميريت للنشر والمعلومات

الفهرس

مقدمة

بسبب التشتت فـي جميـع أنحـاء العـالم ، فإنـه مـن الصعب على الكتاب الأرمن أن يقدموا أدباً يعكـس حيـاتهم بقوة وصدق ، كما يظل التساؤل عن دور الأرمن وأثرهـم في المجتمعات الأخرى حائراً .

فصورة الأرمـن مشـوهة فـي الولايـات المتحـدة ، وفي أي مكان آخر في العالم . فهم بعد النزوح مـن تركيـا بسبب الإبادة الجماعية ، ظللنا ننظر إليهم على أنهم بـائعي أغطية ، وتجار داهية ، وبقايا سلالة منقرضة تنشـد انتقـام عنيف عوضاً عن إضطهادها ، وهي تسلك طرقاً مراوغـة من أجل البقاء .

وظل حال الأرمن هكذا ، وظلوا يعيشـون أزمتهـم العرقية ، ويتجادلون حول مجتمع كنسي ، وظلوا جماعات متزمتـة سياسـياً . ولكنهـم أيضـاً ظلـوا متفـاخرين – بدايـة على بعضهم البعض– بماضيهم العظيـم ، بـدون أن يـترك ذلك الماضي أثراً يذكر على سلوكهم العام .

كل ذلك ينطبق علـى الجيـل القديـم مـن الأرمـن ، ولكن الجيل الجديد منهم اتخذ منحـى جديـداً زاد معـه عـدد

الفنانين الأرمن ، والمحـامين ، والأطبـاء ، والكيميـائيين ، والمحللين النفسيين ، والعلماء ، وغيرهم ... بينمـا مـازال آباءهم ينظرون بلا أمل إلى مـاضيهم . وربمـا يعـود ذلك إلى الروح الإنهزامية عند الجيل القديم من الأرمـن والتـي ترجع أسبابها إلى ذكرى الإبادات وآثارها ، وهو ما ظهـر واضحـاً فـي أدبهم وإن لم يركز عليها بـالتحديد . ولكنـه ذكرها ضمن أحداث تاريخية تمتد لألفـي عـام ، ومبـادئ ثقافية بدأت قبل أمم أخرى كثيرة ، ومقاومة لقيم الحضـارة الغربية .

بينمـا الجيل الجديد من الأدبـاء لم يتـأثر بالإبـادة والنزوح كثيراً ، ولكنه واجه تحدياً أكبر وهو عدم وجـود لغة أدبية أرمينية معروفة وموحدة وذلك يرجع إلى سببين:

الأول: أن كل مجموعة من هؤلاء الأدباء يعيشـون فـي مجتمـع مختلـف عـن الآخـر، وبالتـالي يتـأثرون بقيـم وعادات مختلفـة ويتحدثـون بلغـة مختلفـة وبالتـالي يختلـف مضمون كتاباتهم؛ فنجد مثلاً أن الأرمن الذين يعيشون فـي إسبانيا يكتبون بشكل مختلف عن الذين يعيشون في ألمانيـا أو اليونان أو الولايات المتحدة أو أمريكا اللاتينية أو البلاد العربية، رغم أن جميعهم في الأصل أرمن .

والثاني: هو التحدي الذي يواجهه الكُتـاب الأرمـن الذين يعيشون داخـل أرمينيـا ، فكتابـاتهم تعتـبر محـدودة ، نظـراً لإرتبـاطهم بحـدود جغرافيـة وحـدود ثقافيـة تحكـم كتاباتهم ، كما أن هذا الأدب غير مقروء بشكل واسع على

مستوى العالم ، ما عدا ما تقرأه الجماعات الأرمنية المنتشرة في أنحاءه .

ورغم عدم معرفتنا بشكل وثيق بالكتابات التي تثير اهتمام من يعيشون داخل أرمينيا ، إلا أن أدب الأرمنٍ أصبح يثير اهتمام الكثير من الشعوب الأجنبية مؤخراً ، طالما أن هذا الأدب يعبر عن تجربة إنسانية ، فإذا تأثرت هذه التجربة في جزء منها بالماضي الذي واجهه الأرمن ، فهذا مقبول ، أما أن يكون هذا الماضي هو كل الرواية ، فهذا ما يرفضه القراء ، خاصة من ليسوا من أصول أرمنية .

في أي مكان في العالم يقوم الأرمن بدور نشط وفعال ينفع المجتمع الذي يعيشون فيه ، حتى ولو نظر إليهم أبناء هذا المجتمع كعناصر درامية في رواية . ولذا يقوم الأرمن برسم صورة دقيقة لأنفسهم كما نراهم في الواقع أو كما يجب أن نراهم بغض النظر عن موقعنا نحن منهم . وهذا ما يصنع الأدب الجيد .

وتوضح هذه القصص التطور الثقافي والإجتماعي عند الأرمن ، كما أنها توضح الفارق بين أدب جيلين مختلفين لكل منهما أفكاره وهمومه ، هذا بالإضافة لتأثرها بعادات وتقاليد مجتمعية مختلفة كما ذكرنا من قبل .

فنظرة سريعة إلى الأدباء الأرمن تكشف أن الأديب الكبير " ويليام سارويان " هو أول من لفت الأنظار للأدب الأرمني لأنه أول من حرص على أن يقرأ أعماله

غير الأرمن القارئين باللغة الأرمنية ، وهم بالتالي من نقلوا أعماله إلى الخارج رغم أنه لم يكن الأكثر موهبة .

إلا أن أهمية " ساروريان " تكمن في أنه نقل في أعماله كل شيء عن الإبادة الجماعية التي واجهها الأرمن عبر سنوات طويلة .

ويأتي بعده أهم الأدباء الأرمن على الإطلاق في هذا القرن " فرانز ويرفيل " صاحب رواية (أيام موسى داغ الأربعين) وهي الرواية الأولى في مبيعات الكتب الأرمنية على مدى الستين عاماً الماضية .

وهناك أيضاً " مايكل آرلين " وهو من الكُتاب أصحاب الأسلوب المؤثر ومنه تعلمت الأجيال التالية ، رغم أنه لم يُلتفت إليه إلا في أواخر حياته .

ورغم أننا لم نأتِ في هذا الكتاب بشيء من أدب أحدٍ منهم وذلك لأنهم جميعاً من الروائيين ، فإن هؤلاء الكتاب الثلاثة هم من أثروا أدب " هاجوب أوشاجان " أبو القصة القصيرة في أرمينيا رغم إختلافه عنهم في الأسلوب وفي بعده عن التركيز على الإبادة الجماعية ؛ حيث كانت أعماله تميل أكثر للرومانسية والمشاكل الحياتية ، وتقريباً لم يشاركه مكانته هذه أحد ، ولهذا أخترنا له أربع قصص في هذه المجموعة تعبر عن حياة الأرمن حتى عام ١٩٤٨ في كل من بلغاريا ومصر وقبرص وأورشليم حيث عاش " أوشاجان " في كل منها فترة إلى أن توفي .

أما القصص الأربعة الأخرى فهي لأدباء ما بعد جيل السبعينيات ، وقد كتبت في بلاد مختلفة أيضاً ، ولكن بأفكار مختلفة تعبر عن كاتبيها ، غير أنها تشترك في أنها جميعها مكتوبة باللغة الإنجليزية ؛ بينما جميع قصص " أوشاجان " مترجمة عن الأرمنية إلى الإنجليزية، حيث كان معظم الكتاب الأرمن في عصره يصرون على الكتابة بلغتهم الأصلية حتى وإن اختلفت أماكن تواجدهم في محاولة للحفاظ على وحدة الأصل– الفكرة التي اختفت مع اختفاء لغتهم .

عندما يموت العالم برفق

ويليام ميشاليان

توفي آخر أعمام والدي في اليوم السابق . كان "آرا" في الخامسة والتسعين من عمره، يدخن ثلاث علب سجائر يومياً، لا يترك الخمر ، ويفتح زجاجة كبيرة كل صباح عند تصفحه للجريدة ، تلك التي يصنع أ نفه الأرمني الكبير ظلاً عريضاً علي صفحاتها .

كانت هواية " آرا " المفضلة هي الجلوس إلي مائدة المطبخ ، والاستماع إلي الروائع الأوبرالية القديمة ، ومطربين مثل " كاروزو " ، " جيجلي "، "بيورلينج " . لم يكن يتذوق صوت "بافاروتي" أو "دومينجو" أو "كاريراس". كان يطلق علي أصوات التينور الثلاثة "البالونات الثلاثة الطنانة " وكان يقول أنهم يخافون دوماً من فقدانهم لأصواتهم. كان يكره " بافاروتي " على وجه الخصوص.

عندما كان" آرا "ما زال يستطيع الرؤية ، حاول مشاهدة "بافاروتي"في حفلات عامة ؛ دائماً ما تلازمه حركة التلويح بمنديله، وكان يقول " اللعنة ، لمن يلوح ؟" ثم يقول بعد ذلك " أنه يعرق لأنه بدين ، وليس لأنه يعمل! طوال الليلة وهو يحاول المحافظة علي صوته. المطرب الماهر هو الذي يغني من أعماق روحه ، وليس من خلال أنفه".

في فترة شبابه ، أرسل العم " آرا" بقصص وقصائد إلي الجرائد الأرمنية ، كانت الجرائد تنشرها

دائمـاً، ليـس لأن كتابـة " آرا" تعتـبر مــن الأدب الممــيز ، ولكـن لأن المحررين كـانوا يعرفـون "آرا" فهــم يشــربون القهوة ويلعبـون الــ "تـافلو" كـل مسـاء ، ويعلمـون كـم هـو وحيد . علي أية حال، كانت قصصـه غير مؤذية ، وكـانت هناك دائماً حاجة لشـيء يمـلأ الفراغـات فـي الجرائـد كـل أسبوع .

أفضـل شـيء فـي " آرا " ومـا جعـل إمكانيـة نشـر قصصـه سهلاً ، هو أنه لم يكـن ينـاقش أيـة أمـور سياسـية أبداً. " آرا " لم يكن يؤمن بالسياسة . كـان يؤمـن بالأنـهار والطيور والأشجار في أرضـه الضائعـة ، وهـذا مـا كـان يكتب عنه . كان يبوح بما في قلبــه دون خجـل ، ويكشـف عن سذاجة طفولية ، ومن خلال تعبيره عن نفسه يكون قد خفف بعض أعبائه .

وأخيراً ، ككابوس متكرر ، عاد الألم . لقـد تذكـر اليـوم الـذي دخـل فيـه الأتـراك قريـة أجداده وقتلـوا والـده وجميع الرجال الآخرين الذين يسـتطيعون القتـال ، وكيـف ساقوهم هو وأمه وأخوته وأخواته إلي الصحراء ليموتوا .

حينها ، تحرك شــيء فـي أعماقـه ، جعلـه يتحـرك إلى خزانة الكؤوس ليحضر زجاجة وكأسا ، ويجلـس إلـى المائدة ، ويكتب .

حـاول " آرا " العمـل بكـل شـيء فـي بـلاده حتــى يعيش. جمع العنب ، تعليب التين ، قيادة الجرار ، صنـاعة الصناديق ، وعمل في مخبز ، كما نقل القمامة . وأخيراً ،

استقر به الحال في مجال الطباعة . حيث حصل على مطبعة صغيرة ، وكان معظم عملائه من الأرمن الذين يحتاجون إلى كروت تجارية أو دعوات أفراح .

وقد ناسبت مهنة الطباعة " آرا " . وبسبب معرفته بالميكانيكا ، كان قادراً على المحافظة على آلتي الطباعة الصغيرتين تعملان ، وحتى على إدخال بعض التعديلات الطفيفة عليهما عند حاجته لإنجاز عمل ليستا مجهزتين أصلاً له . وكان " آرا " محترفاً . فعلى حد علمي ، لم تتم إعادة أي عمل لصاحبه لأي سبب ، وكان دائماً ما يتم عمله في الوقت المحدد تماما أو بعده بقليل .

عندما كنت صبياً ، خلال الإجازات الصيفية ، كان والدي يتركني أتسكع حول مطبعة " آرا " ، علمني كل شيء عن الطباعة ، وللحق ، كل شيء عن الشراب أيضاً . لم يعطني قط شيئاً لأشربه ، ولكن مراقبته فقط كانت كافية لتجعلني أقلده . عندما كان ينشغل بالحديث مع أحد عملائه، كان سهلاً أن آخذ الزجاجة من " المكان الخفي" على الرف حيث كان يحتفظ بقطع الغيار ، وأتذوق السائل اللاذع غير المستساغ بداخلها .

كما تعلمت التدخين في مطبعة " آرا " أيضاً " لا معنى لأن تتعلمها في الشارع " كان دائماً ما يقول ذلك "هيا ، خذ نفساً " . ثم كان يناولني سيجارته ، ويضع يديه على فخذيه ، ويراقبني . كان مسموحاً لي بنفس واحد، كنت أستغرق وقتاً طويلاً في ابتلاعه ، لأنني كنت أكره

أن أختنق أمام " آرا " .

ذات مرة ، جاءت أمي تبحث عنى خلف مطبعة " آرا " حاملة لي بعض الساندويتشات ، فأمسكتني ومعي سيجارة في فمي . عندما رأيتها ، لابد أن فمي تدلى مفتوحاً ، لأن أول شيء رأيته بعد ذلك هو السيجارة ملقاة على الأرض . ثم شعرت بلسعة يد أمي على وجهي .

" لن تفعل ذلك ثانية ، " قالت بنبرة مهددة " أبدا . أو ستكون هذه آخر مرة ترى مطبعة عمك" .

" هراء ! "

قفزت أمي عند سماعها صوت " آرا " ، لأنها لم تره في أي مكان .

ثم جاء صوت تدفق المرحاض وأنفتح باب الحمام. كان " آرا " يبعد خمسة أقدام فقط عندما كانت أمي تهددني . "سيجارة واحدة لن تؤذيه ،" أخبرها " آرا " جازماً .

واجهته أمي بضعف . " إنني أعتقد أنها ليست مفيدة له ، هذا كل شيء ، " قالت أمي مدافعة .

"لا تهتمي يا أمي ، " قلت . " لن أفعل ذلك ثانية ".

" هل رأيتي ؟ " وضع " آرا " يده على رأسي وداعب شعرى . " لاشيء تقلقي بشأنه . ابنك في نقاء الذهب " .

"خذ ، " قالت أمي ." أحضرت لك شيئاً لتأكله " . جاءت بالحقيبة التي أحضرتها .

"ضعيها هناك ، " قال " آرا " ، مخلياً ركناً من إحدى مناضد العمل .

وضعت أمي الحقيبة على المنضدة ، مدت يديها بداخلها ، وجذبت ثمرة طماطم ناضجة وكبيرة .

"واحدة فقط ، " قال " آرا " .

" طماطم ، " قالت أمي ، وهي تعيد ما فعلته ثانية بهدوء .

" وجبن، " قال آرا . " حسناً يا بني ، انتهت أيام جوعنا . أنظر إلى هذه الساندويتشات " .

مساء ذلك اليوم ، بينما كان " آرا " في عمل بالخارج ، دخنت سيجارتي الكاملة الأولى.

من وقت لآخر ، كنت أذهب مع " آرا " إلى المقابر، حيث دفنت زوجته وإبنته الوحيدة . قتلتا في صباح يوم أحد كثير الضباب وهما في طريقهما إلى الكنيسة عندما توقفتا عند خط السكة الحديدية لتستمعا إذا كان هناك قطار قادم . في حادث مأساوي ، لاحظ السائق غير المدرب متأخراً وقوف زوجة " أرا " على رأس الطريق . وكأنه موعد مع القدر ، يأتي القطار ، عندما تظهر فجأة من بين الضباب الكثيف ، لم تستطع أن تبتعد عن مسار العربة في الوقت المناسب ، وماتت الأم وإبنتها نتيجة تشابك الحطام . كانت المقبرة جميلة وكنت أحب الذهاب إليها . كانت محاطة بصفوف من أشجار الحور العتيقة على جانبيها ، وأشجار حمراء قوية ومنعزلة تنمو

في مساحات الفضاء بامتداد الطريق المؤدية إلى الطريق الرئيسي . كان العشب أخضر ورائع المنظر ، وجميع الأراضي كانت نظيفة . وأحجار شواهد القبر كان محفورا عليها بكتابة أرمنية .

لم نذهب قط إلى المقبرة دون أن نأخذ شيئاً لنأكله. يبدو هذا مضحكاً الآن ، ولكنه ما كنا نفعله . نكسر الخبز فوق قبور من نحب ، ونأكل الخوخ والخيار ، وهكذا كان يمر بنا الوقت .

الآن ، سوف يتحدث " آرا " ثانية بصوت عال إلى زوجته . ولكن عندما كان يسألها النصح في أشياء تتعلق بالمطبعة ، كنت دائماً أبدأ في البكاء . وعندما أفعل ، كان " آرا " ينظر لي من خلف عيونه الحالمة ، وكنت أستطيع رؤية الوحدة والإعتزاز اللذين يقودان حياته ، واللذين مازالا يؤثران عليه ، كتيار نهر جارف .

" عساك لاتعاني أبداً من حزن كهذا ، " كان دائماً ما يقول لي " آرا " ذلك في السيارة أثناء عودتنا من تلك الرحلات .

لم أكن أعلم حقاً ما هو الموت حتى مات أبي . عندها ، كنت في الحادية والعشرين من عمري وكنت على وشك الزواج .

لم أكن أعلم ما هو الحزن ، حتى حملنا جثته إلى مقابر " آرا " الجميلة ووضعناها بين ظلال أشجار الحور ، في نفس المكان الذى كنا نقوم برحلاتنا أنا و " آرا " إليه .

ومنذ ذلك اليوم ، أصبح لدى أنا و " آرا " شيء أخر يربطنا غير رباط الدم .

ذات مرة ، عندما كنا نغلق المطبعة ليلاً فى إحدى ليالى الصيف، وكنت فى السادسة عشرة من عمرى ، قال آرا : " أعرف ما سوف نفعله . أخبر والدتك أن تقوم بإعداد غذاء لنا ، ودعنا نضع وقود للسيارة ونقودها حتى الجبال " .

" إنها السابعة ، " قلت " هل تريد أن تقضى الليل هناك ؟"

" هذا بالضبط ما أريد فعله . دعنا نخرج من هذه المدينة المجنونة ونذهب لمشاهدة النجوم كتغيير " .

تركنا التلوث والضوضاء خلفنا فى وادى (سان يواكين) ، وعند الغسق ، كنا قد بلغنا ارتفاع ٦٠٠٠ قدم، وهناك وجدنا مكاناً لنخيم فيه ، وكانت الأشجار الحمراء وأشجار الصنوبر ساكنة تماما عندما بدأنا فى إشعال النار مع آخر أضواء النهار .

فى صندوق الطعام ، وضعت لنا أمى كيساً كبيراً مملوءاً بالفلفل الأصفر من حديقتنا . بعد أن هبطت ألسنة النيران إلى حد ما ، وضعنا الفلفل عليها لشيّه ، ثم دفنا ثلاث أو أربع حبات بصل كبيرة بين الجمرات .

" هذه هى الجنة ، " قال آرا " فقط أنصت إلى هذا السكون " .

أنصت ، وسمعت حبات الفلفل تنتفخ وتفرقع كلما

تخللت الحرارة قشراتها تدريجياً .

" أحضرت شيئاً لنشربه ، " قال أرا " سوف أعود حالاً " .

قام ، تمطى . ومشى نحو السيارة . فتح باب القائد، ومد يده تحت المقعد ، وسحب زجاجة من مشروب الويسكى المفضل لديه .

"هيا ، خذ بعضاً منه ، " قال بينما هو قادم نحو النار . فتح الزجاجة وناولها لى .

" أفضل أن ألاّ أفعل ، " قلت .

"خذ ، " قال " إشرب قليلاً " . حرك الزجاجة .

ازدردت بعضاً من الويسكى ورددت الزجاجة إلى " آرا " . الذي أعاد رأسه إلى الخلف ورشف رشفة طويلة. ثم نظر إلي وهز كتفيه .

" ماذا يمكن أن نفعل ؟ " قال ، ثم ضحك " حيواتنا ليست ملكنا . أنت تعلم ذلك ، وأنا أعلمه أيضاً " . أخذ رشفة أخرى ، رشفة قصيرة .

" ما زلت سعيداً يا أليكس . بعد كل تلك السنوات، بعد كل تلك الأميال ، فإنني سعيد . أنا آرا ، اليتيم الأرمني " .

جلسنا أمام النار ثانية . طعم خمر " آرا " ما زال يلسع لساني ، قلبت الفلفل لأنقذه من الاحتراق . بحثت في صندوق الطعام عن ساندويتشات ، واحد مفتوح ، ناولته إلى " آرا " .

أكلنا وجبتنا ببطء ، وأخذنا نتناقل الزجاجة بيننا خلال الساعة التالية حتى قربت الزجاجة على الإنتهاء .

أخذ اللهب في التضاءل . وبدأت النجوم في الظهور ، واحدة تلو الأخرى . ورفعنا البصل عن النار ثم غلفناه بالورق المعدني ، وسرنا نحن الإثنين بحثاً عن مكان أفضل لمشاهدة السماء ليلاً . سواد السماء بين النجوم في سواد حبر مطبعة " آرا " ، وسوادها أكثر حدة من ضوء النجوم نفسه .

" أخبرني يا أليكس ، أنت ذكي . هل هناك إله في السماء أم لا ؟ أو هل يوجد آخر ؟ " .

" آخر ، " قلت .

" نعم . هل تعلم ، عندما كنت صبياً، كانت أمي ترتعب عندما تسمع هذه الكلمات تخرج من فمي . وكانت تبكي، ثم تصلي، وبعدها تسرع إلى الكنيسة لتضيء شمعة. بالطبع ، " أضاف آرا متأملاً، " لقد كانت متدينة ".

بدأت في الاعتذار . " إنني آسف ، " قلت . " لم أقصد أن ... " .

" لا " .

لم يدعني " آرا " أتم كلامي . وضع إصبعه على شفتي وابتسم . ثم أشار إلى السماء . في أفضل لحظاتنا ، في فرحنا ، نأتي بالنور إلى العالم ؛ وعندما نكون ضائعين، وقد يأسنا للأبد من العثور على طريقنا ثانية ، نكون مثل ليلة غائمة دون قمر ، خاوية ومظلمة .

كالأطفال نولد ، وهكذا نعيش ، وهكذا نموت ، نختلف ، كما يقول الأرمن ، تبعاً لما كتب على جباهنا .

خلال ذلك كنا ننظر إلى النجوم ، ونحاول أن نعثر على وجوهنا مطبوعة على سماء الليل .

وهكذا يختفي العالم ، يموت برفق ، ولكنه يعيش أيضاً ، ودائماً ، دائماً يعود من أجل المزيد .

في اليوم التالي لجنازة " آرا " ، دفعت دولارين لأضع سيارتي في مكان حقير عند ناصية " فان نيس " و"برودواي" وخرجت لألقي نظرة في الجوار .

كانت مطبعة " آرا " تقع في ١٦٢٦ فان نيس ، على بعد بابين فقط من مخبز الأرمن . أول شيء كان يحدث في الصباح ، هو أن تجعل رائحة الخبز لعاب المنطقة كلها يسيل ، وخاصة " آرا " . وكانت هناك أوقات، كما أعلم ، كان " آرا " يعيش على الخبز والخمر فقط .

هذه الأيام ، مطبعة " آرا " خاوية بعد إغلاقها للترميم ؛ ولكن مخبزالأرمن ما زال هناك ، وما زالت تملكه سلالة المهاجرين الأصليين الذين بنوه . الأفران العتيقة من القرميد بقيت فترة طويلة قبل تفكيكها ، على الرغم من الأجهزة الحديثة التي حلت محلها .

بقليل من شعور الضياع وبعض الوحدة ، ذهبت إلى المخبز لأشتري بعض الخبز الأرمني الناعم ، كنوع من استعادة لذكرى " آرا " .

العاملة التي استقبلتني لم تكن أرمنية . كانت سيدة أمريكية في الأربعينيات ، ولم أكن قد رأيتها من قبل . عندما أخبرتها بأنني أتيت تواً من جنازة " آرا " ، وأوضحت لها بإيجاز من كان ، قالت ، " أوه ، نعم ، الرجل العجوز الذي كان يدير المطبعة . سمعت عنه . هل مات ؟ "

" هذا الرجل العجوز كان عمي ، " قلت لها . لكني لم أكن غاضباً . فهل كانت تعرف " آرا " ، لم تكن حتى تسأل عنه بشكل عرضي . ناولتها النقود .

عندما وصلت تقريباً للباب ، نادتني المرأة . " عفواً ، " قالت . " لم ألحظ ذلك " .

" لا تهتمي ، " قلت ، مستخدماً ضحكة صغيرة . ثم أدركت أنها ليست ذات معنى ، فأضفت ، " كان ذلك منذ زمن طويل " .

وقت طويل ، طويل . وكما أخبرني " آرا " نفسه، آلاف وآلاف الأميال .

عدت إلى الشارع ، الخبز في يدي ، ورصيف الشارع المتسخ قد اختلف شكله وكأنه حزين على المتوفي، سرت عائداً إلى السيارة . وفي اللحظة التي أخرجت فيها مفاتيحي وفتحت الباب ، قررت أن أقود عائداً إلى المقابر.

عندما وصلت هناك ، كان الجميع قد رحلوا
تتبعت خطواتي لأعود لقبر " آرا "

كان تابوته في عمق الأرض
وقفت هناك طويلاً ، أنظر لأسفل
" آرا ؟ " قلت ، أخيراً . " آرا ، هل يمكن أن تسمعني ؟ "

ولكني أعلم أن " آرا " لن يجيبني .

بعد عدة دقائق ، عدت إلى السيارة . وعندما دخلتها ، لاحظت الخبز موضوعاً على المقعد .

فتحت اللفافة وكسرت منه قطعة . نظرت خارجاً إلى قبر " آرا " ، وبدأت الأكل .

قصة قبلة

هاجوب أوشاجان



" هذا لكم ، يا رفاق "
" شكراً ، تمتعوا بوقتكم "
مجموعة من الرعاة في " زوماج " يحتفلون بعيد الربيع .
كما هو الحال ، منذ عيد تطهير العذراء [٢ فبراير] ، أصابعهم يصيبها الكلل كل ليلة ، في عد أيام شهر مارس السخيفة والفاترة . ويقتلون الوقت في ليالي إبريل ، في العبث مثل امرأة مع العديد من الذكور ، ليعجلوا بمرور هذا اليوم .
يقوم هؤلاء الذين ظلت قلوبهم شابة ، بكل ما يفعله الصبية في القرية ... قبل ذلك بأسبوع ، حصلوا على ما يجب أن يحصلوا عليه ؛ ماعز صغير ، ملأوا القرعة الفارغة بالخمر ، أخذوا بيضاً أكثر من اللازم من أعشاش الدجاج المختلفة ، جمعوا كل ما يريدون من ألبان كل حظائر الماشية على الجبل ، والآن هم يشربون ويتحدثون، باحثين عن العزلة في أعماق غابة " زوماج " الصغيرة .
القرعة المملوءة بالخمر تنتقل من فمٍ إلى فم ، مع وقفاتٍ قصيرة . يعتبر الرعاة الخمر فاسداً لو لم يتحدث المرء أثناء شربه كما يقول التقليديون .
" رحمه الله ، كان يجب أن يظل حياً " ، تنهد أحدهم ، مذكراً الرعاة برفيقهم المتوفى الذي كان يعزف

الفلوت في هذا العيد لسنوات . عبر آلته الخشبية ، كان يحكي قصة كل فتيات القرية ، ويهب الحياة للشيوخ الذابلين بأفكار وكلمات عن الحب تميز الأغاني الشعبية .

" ربما ينزل الضوء ، ربما يتناثر الضوء فوقه ، " قالوا جميعاً في تناغم .

سرعان ما غادرت ذكرى الفقيد مقدمة أفكارهم .

" لا تنسوا النار ! "

وقف اثنان منهم ، يربتا على جبهة الماعز في الحظيرة حتى بكى دون معرفة السبب ، قبلا ذقن الماعز وذهبا ليحضرا حطب الوقود . وانتزع آخر سكينه المكسور من حزامه ، حكه عدة مرات في حجر وجده ، وحفر بعمق بين الأشجار الحديثة النمو . تفقد اثنان آخران حفرة النار الفارغة .

أطلقت عليه الجماعة اسماً جديداً " أيان المحافظ"، ومن أجل إجلال رفيقه المتوفى ركع " أيان" على ركبتيه ، وأمسك القرعة ؛ وبعد أن أخذ بضع رشفات، مسح شاربه ومشى نحو الماعز الصغير. مر ثلاثون عاماً الآن وهو يذبح الضحية في هذا العيد .

بمجرد أن اشتعلت النار تماماً ، دار الماعز المنتصب في السيخ المعدني الطويل باستمرار . قبل ذلك، كانت أحشاء الماعز من كبد ورئتين قد التهمَت ، نصف شواء .

وينتظر البيض ، المصفوف على أحد جانبي حجر

كبير ، دوره في الطهي .

برغم ضآلة أوراق النبات ، كانت العزلة مبهجة ومتوفرة تماماً . كانت الأوراق تتساقط نحو الأخدود المنحدر وتفتح بؤرة من الضوء على البحيرة . اللون الأخضر الضارب للصفرة الذي يحيط بالجبل يسر العيون.

الرعاة مسرورون . هذا أحد الأيام القليلة في العام الذي تنتفخ فيه بطونهم مثلما تنتفخ ثروات الأغنياء . بتجمعهم معاً في الربيع الصحو ، سوف يعانون مرة ثانية من ألمهم الذي لا ينتهي ، والذي يسببه الحديث عن العروس ذات الرداء الأبيض .

يتحدثون بكلمات متكسرة ، وأفكار متقطعة ، وإشارات لوصف النساء . من القلب ، يمكنهم أن يؤدوا مقتطفات رقيقة من أغانٍ قديمة ، كانوا يرددونها في قريتهم، منذ طفولتهم حتى ألآن . البنات والنساء البعيدات اللاتي ذهبن إلى العالم الآخر نتيجة لموتهن صغيرات جداً وبشكل مأساوي ، عرائس تناولنَ سماً نتيجة لغرام غير مشروع ، الأذربيجانيات منهن ، اللاتي دُفِن في رحاب البحيرة ، كانت لهن جميعاً أغنيات شخصية ، ولدت برفقة الدرامز ، اختفت كلماتها قليلاً ثم سجلها المغنون شيئاً فشيئاً .

أمرهم صديقهم " المحافظ " ، بطبيعته السمحة ، أن يغنوا جميعاً . تحركت رءوسهم إلى الخلف ورفعوا أذرعهم ، للتخلص من سكونهم ، إلى أعلى وأسفل تتحرك

كعوبهم ضاربةً الأرض برفق وتناغم .
بعد أن تمكنت منهم الإثارة ، استعدوا لرقصتهم :
يأتي الينبوع من البحر ،
يأتي ، تعانقه الرياح .
كل عروس خجولة ..
تأتي من جانبها المفضل .
أُعطيت الإشارة .
ذهب " أيان المحافظ " خلف شجرة البلوط ، أخرج الفلوت وبدأ في تأدية دوره القروي . أعاد الراقصون كل بيت في الأغنية ، وكانوا يستريحون عند المقاطع اللحنية الحارة ، متغامزين على العرائس الخجلات ، اللاتي يرتجفن عندما يخفض الرعاة أصواتهم ، وعندما يذكرون الحبيب ، ويدقون على الأرض بعنف . وأثناء ذلك يبعد عازف الفلوت الآلة عن فمه ، يصفق بيديه ، مكرراً الدقات ؛ متابعاً حركة الرفاق بنظرات حنونة من عينيه المسنتين .
فجأة انفصل " الهامشي " عن بقية الراقصين ، وأسرع إلى ناحية " أيان " وسقط عند قدميه ، وبدأ في مناشدته :
" مرة واحدة يا أخي ، أخبرني كيف قبلت ابنة (آغفين) " .
أسرع كل الراقصين إلى أسفل الشجرة ، بطريقة مجنونة تثير المشاعر ، بأمل جدي في سماع القصة

الوحيدة التي عادت بالحظ على جماعتهم كلها .

" اذهبوا إلى شؤونكم يا رفاق . هذا العام لا أشعر برغبة في الحكي " .

ومع ذلك ، أحاط الرفاق بـ " أيان " . ربت أحدهم على قبعته القديمة بخفة وأخذ يشد لحيته ؛ وضرب آخر ركبتيه بظهر يده ؛ وشده الثالث من حزامه .

" شيطان مؤذٍ ، شيطان مؤذٍ ! " .

ورغم ذلك أيضاً ، مثل كل عام ، مع الماعز المشوي أمامه ، استقرت قرعة الخمر على ركبته ، حكى الحكاية بنفس الكلمات ، بنفس السعال ، بنفس الوقفات لتناول الطعام والشراب .

لم يكن وقتها هامشياً كما هو الآن .

ككلِ فتيان القرية الآخرين ، كان صغيراً أيضاً ولكنه بارزاً عنهم ، بالتفصيلة الأنيقة لبنطاله القصير ، منديله الحريري الناعم المطوي بشكلٍ أنيق ، ووشاحه ذي الأضلاع الثلاث الذي يغطي صدره وبطنه .

اعتاد بعد عيد الفصح ، أن يعود إلى عمله ، فيطوف بقطيع من ماعز وحملان " كينو " حتى ترتفع الرياح في أكتوبر . وبعد أن يختزن مؤونة الشتاء ، يتوقف عن العمل .

أن تكون راعياً بهذه الطريقة هو شئ جدير بالاحترام . أمهات الفتيان الذين لا ينفصلون عن الجماعة، سواء صيفاً أو شتاءً ، تمشين منكسات الرؤوس في

طريقهن من وإلى الكنيسة ؛ تترددن في التحدث إلى النساء اللاتي لديهن فتيات غير متزوجات . وكان نادراً ما يحدث في القريـة أن تتزوج فتـاة مـن فتـى يعـرف طريقـه حـول الجبل ولكنه غريب عن الكنيسة والمصلى .

لسبع سنوات ، طاف " أيان " بماعز عمدة البلدة .
ولسبع سنوات ، لم يتمنَ مالك الأرض له المرض ، بعيداً عن حبه للماعز الذي يملكه .

كانت له خطيبة ، مثل الآخرين ؛ في عيد الفصح، يرسل لها التهنئة ؛ حتى شـاهد مـن بعيـد ، تـألق فتـاة فـي ثوبها الأحمر الأنيق .

في سـن الثامنـة عشـرة ، أصبحـت أبنـة " آغفِن " كعروس منزل العمدة .

كانت كالزهرة التي نادراً ما تتفتح في تلك القـرى. كانت خبيرة في الانتفاع بجمالـهـا ؛ بجلدهـا الأكـثر بياضـاً مـن اللبـن ، وشـعرها الممتـد بطـول جسـدها ، ابتسـامتها المثيرة المرتسمة دائماً ، كان لديها من الأنوثة الكثـير ممـا يمكن التحدث حوله . لقد أريقت الدماء من أجلها .

كـل مسـاء ، اعتـاد " أيـان " أن يسـوق المـاعز والخـراف بمسـاعدتها ، فـي جـانب مظلـم مـن الإسـطبل. مقارنـة بلسانها ، حتى حجر الطاحونة سوف يكل .

* * *

" اشربوا ، يا رفاق "

كانت فترة استراحة . ضاقت عيونهم حتى لا تضيع صورة المرأة الجميلة منها ، كان الرعاة يمررون القرعة نصف الخالية ، اقتلعوا أضلاع من الماعز المشوي، التهموا اللحم بسرعة ، ثم استداروا على بطونهم نحو الأرض ، ذقونهم الصغيرة استقرت في راحات أيديهم، أصبحوا مستغرقين في السمع .

* * *

أخبرهم " أيان " بالقصة .

وسط الدخان المتكاثف بالفعل ، صوت العروس القلقة ، الأسئلة التي لا تنتهي ، القهقهات النابعة من القلب، الطعم المميز للعنة ، والمفاجآت الصغيرة من وقت لآخر التي تجعل نصف اللبن يراق ، والعمل لا يتم في وقته ، والعمدة يؤنبهم . من أجل خاطرها ، احتمل المصيبة التي لا يمكنه تحملها . ولم يكن قادراً على النوم .

صورتها تبعته أينما تحرك في الجبال ، تعذبه باختلافها وسحر تميزها . ليلاً ، كان طيفها يزوره في فراشه . في الصباح ، عندما كانت تحضر مؤن اليوم لتعلقها في جرابه ، كان " أيان " ينظر لها والدموع في عينيه ، تسحق قلبه .

مرت أيام قبل أن تلمس أصابعه يديها وانسحق وشاحها تحت سروالها الفضفاض . خارج القرية ، عض أصابعه ، وأصبحت الأجزاء السعيدة من وشاحه باردة .

* * *

" بحق الإله ، اشربوا ، يا رفاق ! "

شربوا ، ثم تحولوا إلى وضع أصابعهم العجوزة في أفواههم ، يقبلونها بعيونهم المغلقة ، بمنتهى البطء، وكأنهم ينامون مع زوجاتهم في الليالي .

* * *

كان الرجل العجوز يتذكر ما حدث منذ أربعين عاماً في عيد الربيع كما هو اليوم .

هؤلاء هم الرعاة ، تجمعوا سوياً في نفس البقعة ، يشوون الماعز ويسكرون .

كانوا يتملقونه وعندئذ يسخرون من جبنه . ماذا يمكن أن يحدث ؟ ليس كما لو أصبح وجه العروس الشاب رثاً ! نظراً لكثرة الشراب ، ذهب إلى منزله مبكراً تلك الليلة ، اختار الماشية التي سيتم حلبها وقادها إلى داخل الحظيرة .

العروس الصغيرة عذبته حتى تكتشف سبب تغير

المكان ؛ سكونه جعلها تظهر أمامه أكثر ، تنحني بقربه ، تضحك ، تسحب يديه بقوة بعيداً عن ضرع الماشية .

ذلك الجزء من الحظيرة يصبح مظلماً كالليل بعد الغروب بقليل . الماعز التي سيتم حلبها تلعب مع بعضها وتقفز على ظهور بعضها ؛ الصخب الناتج عن الأجراس يغطي على الضوضاء الخارجية .

واصلت العروس الصغيرة ، تساؤلاتها المتعاقبة ، تسحب نفسها بقربه أكثر ، تضغط على أضلاع الراعي بركبتها .

* * *

" اشربوا ، يا رفاق ، اشربوا " .

كان الهامشيون صامتين وما زالوا حتى ذلك الوقت ، منتظرين أن يفتح الرجل العجوز ذراعيه ، ويعانق شيئاً في الهواء ، ويضمه إلى نفسه بكل قلبه وروحه . ثم يبكون حين يرتفع رأسه ، شفتاه ترتجفان وتقبلان شيئاً في الهواء .

* * *

توقف المهرجان بعد ذلك . حزانى لبرهة ، رقد الرعاة على ظهورهم ليعيدوا الحياة لخبرة الرجل العجوز.

كانوا يعلمون أن " أيان " قضى الليلة فوق الجبل مع رفاقه ولم يذهب إلى القرية لأيام . لم يستطيعوا مساعدته ولكنهم وصفوا الضربات التي تلقاها " أيان " على يد زوج العروس الصغيرة في وسط القرية .

وكانوا يتذكرون ، بألم مكتوم ، أن خطيئة " أيان" فسخت خطبته .

منذ ذلك الوقت ، كان يشعر بالخزي لأنه ترك القرية ، بنى كوخه بالقرب من الرعاة ، ولم يظهر أمام أحد حتى تلاشت روح الشباب من عروقه ، ونما الشعر الأبيض في ذقنه وتحت أنفه .

وعندئذ وجده الهامشيون بينهم في الجبال .

* * *

عيد الربيع ، بقبلته الوحيدة ، هو الآن عيد للهامشيين ، مثل الكريسماس وعيد الفصح .

الأطلال

هاجوب أوشاجان

لا شيء أكثر عمقاً وبقاءً من علامة يطبعها على أرواحنا الخوف، الضغينة، والدهشة المتراكمة منذ طفولتنا. ما نتلقاه حينها يشكل لأرواحنا أساساً لا يتزعزع. إنني أفرغه على هذه الصفحات ، غير خائف.

الآن يمكنني الحكم على إنجازاتنا العظيمة ، دون جبن قبل أن تخبو الرغبة في إبراز عيوبنا . قبل أربعين عاماً ، اكتشفت سر الأسطورة الغامضة . عندما بدأت رحلاتي ، على طوف السيد " آرتين " ، اقتربت من معرفة أسماء وحيوات أخرى . إنها صبيانية، بالطبع، أن تحب حياة شخص ما ؛ ولكنها أكثرصبيانية من أن تشجبها، لا أن تحبها . كنا أول من بدأ في طرح مفهوم حديث للأشياء في المدن التي دمرها الأتراك ، ومنذ مائة عام ، قدَمنا لما يحاولون قبوله بصعوبة اليوم، المفروشات الشقق ، الأغنية والرياضة . ولا تنكر روعة الجهد والطموح الذين يقتضيهما التخلص من نير الاستعباد البغيض . ولا تنشغل بأمر حجم بحيرة أو اثنتان من الدماء...

أخبرتكم أنه ، منذ أربعين عاماً ، كان يوجد منزل لعائلة " نالبانديان " . وكانت هناك حديقة بالطبع ، وللحديقة ظل كما في الأسطورة . ورغم أنها كانت كلاب حراسة هزيلة وجائعة تأتي من مكان آخر، فإنها لم تكن تخفف من طلعاتي الليلية ، جنوني ، رهبتي ، ولكنها

وياللغرابة كانت تسرني . كانت الجائزة رماناً من نوع ليس له مثيل في القرية . يبدو أنه استعار دماءه من عرائس عائلة " نالبانديان"، بتقوساته الذهبية والخشنة ، وذروة بارزة مثلما تعلو خوذة الحرب رأس قديس ، قديس ملكي في زي جندي .

لم أعِر انتباهاً لهل هو ناضج أم لا ، كان ما يشغلني هو خداع هذه الأشجار التي ملأت أحلامهم ، لأمتص ما حُرم على أجدادي .

وبعد الرمان ، يأتي التين . عندما يبرز من بين أوراق الثمار ، يتشكل مثل أثداء صغيرة مما يجعل الأشجار أنثوية ولينة ، لبنية وحلوة ، تعِد أسناني مبدئياً بطعم مميز آتٍ ؛ ثم أشعر بعدها بزغب ونعومة ، عندما تبدأ أصابعي في اكتشاف الفاكهة على شجرة المعرفة .

مهما كانت الحكايات التي أخبرتني بها عمتي عن الأيام الخوالي لهذا المنزل - وكذا الحكايات التي لم تخبرني بها ، تلك الخادمة العجوز التي كانت مبعث الحياة بالمنزل، وكانت عمياء ، تقِر بوجود الشبح وكأنها تحكي قصة مرعبة ، بإشارات مثل : ذات مرة ، بينما ، في زمن ما - وهو ما كان بالطبع غير كافٍ ليجعلني أفهم لماذا لعميد عائلة " نالبانديان " السيد " سيروب " جسد ضعيف جداً بالكاد يمكن زعم إصابته بالشلل ، أو بمرض - ما - غامض يبقيه دائماً ملازماً فراشه ، المرض الذي يأتي ، يمكن أن يأتي فقط ، مباشرة من دماء الجد الأكبر.

شكله الشبحي كان بالفعل هناك قبل أن يعيه عقلي ، الوجه المخضر ، المستدير ذو العظام البارزة يلتصق بزجاج النافذة ، بيد واحدة مترددة تتحرك دوما نحو فمه ، لتحبس السعال ؛ محروم من الهواء النقي وضوء الشمس ، قاسٍ ومتحامل وعنيد أمام الألم . لماذا عانى كثيراً ، تعجبت ، ثم اهتممت بأشياء أخرى . أرواح الأطفال لها شطحات صغيرة .

كانت الفاكهة والسرقات الصغيرة تملأ هذا العالم الصغير . هل انجذبت ؟ ولكن النهار كان للدجاج والبط . وكنت أعلم أنه لا السيدة " آنا " ولا بناتها الصغيرات الجميلات تجرؤن على وضع أرجلهن في الحديقة . لم تكن تسمح لبناتها حتى بمجازفة الخروج عن حدود المنزل خلال النهار . كان من المفترض أن مدرس القرية ذا الذراع المشوه – ولكنه كان يلقب بـ " البرميل الرابض "، وهو اسم قريب للمظهر – قد استطاع بالكاد أن يعلمني أن أميز بين الحروف الأبجدية ، فقد كنت أذهب للمدرسة مثلما يعود حمل صغير إلى القطيع ؛ كنت أجلس هناك دون أن أنبس بكلمة ، يعذبني الفقر الذي تسلل إلى روحي. أبناء الأغنياء يمكن أن يترقوا إلى مدرسة ثانوية خلال أسبوع ؛ فليس لديهم مشكلة في فهم حديث المدرس عن الواقعِ الذي هو " من يدفع يختار اللحن " ؛ أَثَر البيض المختلس على سمعتي ، لأنني كنت أنتزعه من تحت الدجاجات الحاضنة ، ما كان يخرج منها كنت أضعه

بمقلاة المدرس بكل ما فيه من مخاطٍ ودم . وظللت مثبتاً إلى أداة التعذيب الخشبية لمدة عام كامل ، حيث كانوا يضربونني ثم يضعونني عليها ، من العسير أن أقول كيف استطعت أن أكوِن بعض الأفكار عن أشياء مرتبطة بأسطورة " النالبانديان " إلى جانب تعرضي لتقريع عنيف كان يجب أن أتحمله أو " استمتع به " ، كما يُطلِق عليه المدرس التقليدي ، عدة مرات في الأسبوع ، عن دناءتي ، انحرافي ، صعوبة مراسي ، وجوعي كيتيم هزيل لا يستطيع المقاومة . هذا التقريع وتلك الأسطورة ارتبطا دائماً بتعرضي للضرب بشكل روتيني جداً ومتميز على " الفلقة " ، بهدف عقاب قدمي " الملعونتين والمؤذيتين " ويديي " السارقتين ، الشريرتين " وذلك في حضور السيدة " آنا " ، التي كانت تصاحب المدرس بارتياح وسعادة خبيثة عند كل نوبة قلبية ، وقسم موثوق به ... هذا النوع الذي تفوح منه رائحة البول ، وهو طفيلي ، فصيح ، ويخرج سلسلة من النكات الكريهة الواحدة تلو الأخرى .

مستثيرة نيران الانتقام الإلهي ، سهام الشيطان وكل القذائف من الجحيم ، دعت أن تتحطم أصابعي ، التي تستحق ذلك ،تحترق ، تنفجر ، وأن تتحول إلى بودرة كالدقيق لأنها لا تقدِر جمالها ، أناقتها ، الرمان الذهبي الناضج كغير الناضج .

إبكِ من أجل أمك ، فوق الجبال ثم اذهب ، اطحن

أصابعها في طاحونة سريعة الدوران حتى تستخرج قطعة خبز جاف من ماء يغلي ، كما تصنع هي الحرير لتغطي النهود البيضاء لزوجات أبناء " النالبانديان " . إبكِ من أجل أبيك ، فوق الجبال ثم اذهب ، حيث يحترق قلبه من الألم على دموع طفله ، يعلم الله كيف ، منذ أن كان طوله ستة أقدام ... ثم جاء الاختبار الذي يصون سمعة المدرس على حساب الأولاد وهو " من الذي لديه أسنان "، من الذي يرد ، يلاحقٍ بجسارة ثم يقتصر على قتلهم ، كما أطلق هو صراخاً عندما أدار الصولجان حول رأسه ثم أنزله تحت قدمي ، ليضرب الطفل اليتيم الذي لا أحد له في العالم ولكن العمة العمياء غير القادرة على المجازفة لأبعد من حدود جيراننا ؛ لعناتها ، تنتقل عنِ طريق المتحدث الرسمي ، وترتد إليها بأربعة أضعافها لتفرَغ في صدرها. كم تأسيٍ قلبها ، في ثورتها العقيمة ، عندما بكت عيناها دماً بدلاً من الدموع ، كانت تتوسل إلى السيد الأزرق الذي كان يجيب دعوات الناس لكي تفتح عيناها ولو للحظة ، لمدة تسمح بفعل ما هو غير متوقع منها قبل هذه الكارثة ، أن تطول بذاءة لسانها المدرس السيئ ، وأن تمزق أحشاءه بسيل من لعناتها .

كانت تنتحب وتهتاج . كان الجيران يشعرون بالرثاء نحوها ، رغم حصولهم على نصيبهم من اللعنات . وعد أحدهم أن يبعث بزوجها إلى الغرفة الملحقة بالكنيسة التي يعيش فيها المدرس . ووعد آخر ، ثانية ، بأن يرسل

المدرس إلى نار جهنم ، بسببها هذه المـرة . وحينئـذ عدنـا إلى حجرتنا . هناك ، وقفنا على تلك الأرض القـذرة التـي تفوح منها رائحة الأرض والسماد الجاف ، تحولت دموع عمتي إلى صلاة ، تناشد بها أبـي القـوي فـي مكـان بعيد عن الأرض ، ليجئ ويقف بجانب اليتيم الصغير، بسرعة العصفور ،ليظهر بجـلاء أمـام المدرس ، ولكـن بـالأخص أمام تلك المفترسة المجنونـة" آنـا نـالبانديـان"، والتـي ربمـا تنقل خطاياها بدلو من آبار عميقة ، لتدفنها في مكان آخـر أمام خيالي المذهول .

فـي مثـل هـذه الأوقـات ، كنـت أتذكـر لا إراديـاً شخصاً آخر ، الجد الأكبر للنالبانديان ، الذي كانٍ معروفـاً بأنه راعـي الفقـراء ، كمـا تخبرنـي عمتـي غالبـاً لـترضـي فضولي المتلهف . " لعله ، لعـل الـرب ، يحمـي اليتيـم " ، كانت تقول ذلـك ، وتضمنـي إلـى صدرهـا بذراعيـن غـير مدربين ، يستريح رأسها على وجنتـي ، غـير قـادرة علـى منع دموعها . لا أعلم ، لا أتذكر الآن كم كنا نكذب هنـاك ... لكي أكفر عن جرائمي ، كان يجب أن أقطـع حزمة مـن فروع السنديان بيدي العاريتين ، أقشـرها لسـاعات بقطعـة من الزجاج بينمـا يلعـب الأولاد الآخـرون الكـرة ، ألمعهـا حتـى تومـض ، كمـا اعتدنـا أن نفعـل بعظـام الحمــلان أو عظام الدجاج ، وبعد أن أطليها وأتركها لتجف طوال الليل في الفرن ، أضعها على مائدة المدرس . كانت هذه كفـارة قوية ، كفارة تليق بلقب العائلـة وكـان الهـدف منهـا كلهـا

تنظيف أصابعي السارقة من السموم التي يعلم الله كيف استطاع الشيطان أن يزودها بها ، حتى تسللت إلى لحمي، قدمي ، وإلى كل ظفر في يدي .

ضربات ؟ بالطبع ، حصل الآخرون على نصيبهم. ولكن نصيبي كان الأكبر .

رغم الألم البشع ، الذي ضاعفه خوفي أكثر وأكثر ، ونقلني إلى جحيم مطلقٍ ، لحمي يحترق تحت ضربات العصا كما لو كان معلقاً فوق لهب ، أنا قادر اليوم على التذكر ، بكآبة يتيم ، ضحكة صامتة ، هذا " الغليان الجاف " للأيادي والأقدام ، لاستخدام الاسمِ الذي قدمه المدرس اللاهث - كان قد أرجأ غلياناً رطباً للعظم في قِدره - وهو يلعق بلسانه الزبد عند زوايا فمه . ولكن، حتى ذلك اليوم ، لم أكن قادراً على تفسير لماذا تزداد حدة الخوف للدرجة التي جعلت شعري يقف على آخره عندما كان يمل من استخدام عصاه ، وبنفس ضراوته ، يهدد بأنه سيشطر رأسي إلى نصفين كقرعة ضخمة ، في حجم طفل عمره شهر واحد ، ويستخدمها كسنادة للوسادة الرقيقة التي يسند المدرس - الذي يجلس دائماً في المقاعد الجانبية - كتفه الأيسر فوقها .

في تلك الأيام الاستثنائية ، كان المدرس - ليرحم الله روحه ، ولكن لا يضع أبداً مدرسة أخرى تحت تصرفه ، سواء في الجنة أو في النار - بأصابع غاية في النحافة وكأنها على وشك السقوط ، يسحب الكتاب من

تحت الوسادة ، يسعل ، ويلهث ، ويتنفس بجهد ، وآلاف من نوبات السعال تنقر حنجرته ، وهو يتوتر ، حتى يجد الوقت والطريقة لحملها ، بضجة شديدة ، وإحضارها - كنت طوال الوقت أُحمل سريعاً بواسطة أربعة أولاد أقوياء، اثنان يمسكان بذراعي واثنان يمسكان بقدمي - لتصبح رأسي لأسفل وقدماي لأعلى ، طيران الشعر وهدوء الروح لكونها قادرة على الثأر ، ليتيم مسكين ، جعل الرب يحكم على المدرس بعقاب فوري وهو نوبات سعاله ، التي تطعن حنجرته بآلاف الإبر كما لو كان يلدِغه سرب من النحل ؛ مما جعل عينيه تنتفخ وتجحظ وتشكِل تجعيدات على جلد وجنتيه . يُخرج البلغم والدماء في الشتاء ، في المدفأة ، وفي الصيف ، خارج النافذة وعلى رقعة الأرض الصغيرة التي كنا نلعب فيها بعد أن يدق الجرس ، نشير إلى بقعة الدم متزايدة الدكنة ، نقسم، وتهدأ نفوسنا .

ذلك الكتاب ، كان جامداً كالحديد ، وكأنه مجلد بالفولاذ ؛ سقط على رأسي مثل حجر خفي برز للعيان فجأة في النور. فجأة تدفق النور من عيني ، ثم جاء الظلام بعدها وهو يفور ، كما لو كان يسبب الدماء التي تتدفق بعنف .

وقفت هناك مبهوراً ومتحولاً إلى هلام . كم كلفني هذا الكتاب من دموع ، خاصة بعد المدرسة .

الآنسة " إيفا "

هاجوب أوشاجان

إلى " كريكور زهراب "

كل من في القرية يعلم أنها تحب الأطفال حديثي الولادة . تحضر إلى الكنيسة عند كل تعميد . مرتدية ملابس ذات ذوق سليم ، تحمل تحت ذراعها رزمة بيضاء ناعمة وصغيرة ، كانت تقف بالقرب من الطفل المُعمد ، وابتسامة خفيفة على وجهها ، تقوم بنفسها بالمهام الضرورية . بعد أن يخرج الطفل مِن جرن المعمودية ، يجب أن تكون هي أول من يُقبله . وتلبسه ، وتغدق عليه بحفان من أشياء صغيرة وخفيفة . وحُلي متألقة كالثلج ، ووشاحات حريرية مبهجة ومتطايرة ، وشرائط معقودة ملونة مثل الأشعة الوهمية تجلب السكينة إلى قلوب المترددين على الكنيسة . وعندما تسألها لماذا تفعل ذلك ، كانت تجيب : إنها مشاعري الودية .

عاشت " إيفا هانم " في القرية سنوات عديدة ، تعيش حياة سيدات المدن غير المتزوجات اللاتي تُظهرن الهدوء والخمول في الخارج ، ملابسهن أنيقة ، وتعلقن برقة على محاسن الأيام الخوالي . تمنحن ابتساماتهن لكل شخص تقابلنه ويذهبن في نزهات وحدهن أو مع كلابهن. يُبدين فضولاً وحماسة متفردة لكي يتجنبهن الرجال .

كل ذلك أكسب " إيفا هانم " اسماً جيداً . تنتشر الإطراءات في كل الغرف عبر الفناءات ومن الفناءات

عبر الشوارع ، وتلف القرية عدة مرات . في المناسبات ، يجب أن تقدم هدايا كالسراويل الجميلة للأولاد وتدفع بالأحذية الناعمة في أقدام الأطفال الذين لا يستطيعون السير . كانت تجلس لساعات أمام المهود مداعبة الحُلي الذهبية المتدلية من أقواسهم . أغانٍ تغنيها كفيضٍ من الحب ، تعطي صوتها العاطفي نبرة بكّائية .

بين كل الفتيات ، كانت هي الأكثر جاذبية ، إن لم تكن الأكثر جمالاً . في تلك القرية الصغيرة ذات المنازل غير المنتظمة حيث يقدم نقص الرجال فرصاً لإنعاش الذاكرة على المنسي ، اسمها كان على شفاه كل شخص . كانت تفتقد نعومة الجسد المبهجة ، النبض بالحياة ، القسمات ذات الوعود . كثيرات كن أجمل منها ، لكن ولا واحدة منهن كانت في رقتها وكياستها . في عيد الفصح ، كانت أفضل من تلبس ، رغم أنها ليست ثرية . صديرياتها كانت من " بروسا " ، صديريات تطوق صدرها بخفة ، وتصقل ظهرها . ضخامة ثدييها ، جعلت الطراز يصبح جذاباً لأنه يلفت النظر إلى أن المجنون يستطيع أن ينتزع جزء من الجمال المخبأ .

ذهبت إلى " بروسا " عندما كانت شابة وبدأت العمل في أحد مصانع الحرير الكبرى ، تحت ملاحظة عمة لأبيها . وبعد الصعوبات الأولية ، جاءت أيام الراحة ببطء .

خلال فترة عملها ، نما شعرها وتحسن وضعها

قليلاً . ما تمنت أن يحدث لها في الأيام الماضية ، سيصبح الآن مُرضياً فجأة – مفاجأة جميلة .

كان لديها أشقاء أكبر لم يحتاجوا إلى أجرها الذي لم تكن تنفقه كله ، رغم أنها لم تكن تأخذ " بارا "* واحدة إلى القرية . ولكن لكي تفتح قناة وصل كانت هناك طريقة . فملابس وحُلي الفتيات الريفيات كانت متوفرة هناك ، حيث الأنواع المختلفة من المشدات والأحزمة ، والقبعات الأنيقة تشبع الرغبات . العديد من الأثواب صنعت من أقمشة غالية ولذا فقد كلفتها ثروة . خاطت لهم جميعاً ، وكان تناسق الثنيات أو دقة المقاييس تستغرقها لأيام ، كل تلك الموضات كانت معروفة للفتيات القرويات اللاتي لم يحالفهن الحظ بارتداء الملابس التي تصنعها إلا في عيد الفصح ، عندما تأتي إلى القرية ، فهل نجحت ؟ بعد شجار طويل مع أمها ، لترتدي بعض هذه الأثواب الجميلة التي سوف تبرز جمال صدرها ، وكأنه طائر يجثم بين كتفيها .

كانت تمشي عبر الأراضي المزروعة مثل فتاة من المدينة ، شعرها غير معقوص ، طيات ثوبها مربوطة بإحكام . في وجود جمالها ، تنزوي كل فتيات القرية في الظلام وتصبحن باهتات .

كانت عادةً ما تتواجد في القرية عند كل مناسبة .

* بارا " PARA " : عملة أرمينيا .

وكانت تمر عبر الحقول في أيام عيد الفصح الثلاثة المشمسة قاصدة الكنيسة حتى ولو كانت تمطر . ولهذا ، كانت الأخبار تنتشر باكراً ، وخلف النوافذ ، كان الكبير والصغير ينظر في الحال لهذه المخلوقة النحيلة التي تمر مثل نسمة . تحت مظلة حريرية ، كانت تربط رأسها بقوة؛ جامعة شعرها إلى أعلى بينما يتحرك شعرها بحرية بين بعض الزهور الصناعية .

وصدرها ، عرضة دائماً للتدفق خارج حدوده ، مما يضفي عليه أطياف من إغراء شخصيتها القوية ، جمال يجعل كل فرد ينتظر في إعجاب وترقب حتى تختفي عن الطريق .

* * *

في أحد أيام عيد الفصح أتت ثانية ولم تعد أبداً إلى " بروسا " . وكانت تقضي معظم اليوم في المنزل الريفي الخلفي حيث زرعت حديقة رائعة تنمو بها أجمل وأغرب الزهور . وقد شكلت صفاً من الأشجار ، منسقاً ومشذباً كما لو أنها أخذته عن نموذج لرداء حريري . في المساء كانت تخرج ، تسير قليلاً عبر الأراضي المحروثة ، ثم تهبط في النهاية إلى القرية عبر حافة الجبال مع أشعة الشمس الأخيرة ، هادئة وراضية ، ودائماً ما يكون في يدها باقة من نباتات خضراء وزهور قليلة في شعرها . هذا النوع من الحياة هو ما أكسب خديها حمرة خفيفة ،

وأضرم ناراً جديدة في أعماق عينيها . ابتساماتها الهادئة تلف جسدها كله .

وهكذا ، لعشرين عاماً ، هذه الفتاة القروية ، الأكثر جاذبية إن لم تكن الأجمل على الإطلاق ، لم يتزوجها أحد. أصبحت عانساً . مثل تلك الفتيات الغريبات اللاتي ، لأسباب غير معروفة ، يرفضن الزواج ، هي أيضاً بدأت في الذبول ببطء ، برغم أن تصرفاتها احتفظت ببساطتها . صدرها الكبير بدا وكأنه أصابته الشيخوخة خاصة وهو داخل سجنه ، وشعرها ظل مفروداً ، محولاً وجهها الجميل إلى قطعة صغيرة . نظراتها ، كنظرات الفتيات غير المتزوجات ، تبرد تدريجياً ، مضفية على قسماتها نوع من الحزن .

ماتت والدتها منذ فترة طويلة . وتزوج كل أشقائها، وامتلأ المنزل بزوجاتهم وكانت دائماً في انسجام معهن . وقد أعدت ببراعة زخارف ملابس عرس "الأغا"* كما زينت أوعية الزيت المقدس بديكورات رائعة . مرة في العام ، كانت تذهب إلى المدينة ، وحزمتها الصغيرة في يدها . وفي كل مرة كانت تعود ، كان يُسمع صوت صندوقها ، يُفتح وبعد قليل ، يُغلق .

كانت لها غرفتها الخاصة في المنزل ، وصندوقها الخاص ، المصنوع من خشب الجوز الفاخر ،

* الأغا " AGHA " : هو سيد القرية أو أغنى اغنيائها .

الـذي يحـوي أثمـن ممتلكاتهـا علـى الإطـلاق . وفـوق الأرضيـة الخشبية سجادات غالية وفـي نهايتهـا أريكـة واسعة ، وفوقها الستائر التي تخفـي الضَعـفْ ، والأسرار الهاربة ، وعلى أحد الجوانب ، يرقد الفراش وحيداً علـى هيكله ، بارداً وقاتمـاً مثل سر مقدس . علـى الأقل مرة واحدة يوميـاً ، كـانت تحـرص أن تجلس هنـاك بانتظـام ، رغم أنها لم تكن تنام . كل يوم ، كان صندوق " دوطتها " يُمسح بالماء الدافئ .

كان نصف يومها قد مر أمام النـافذة . وزهـور الريحان ، توازي إطار النافذة طولاً ، في صناديق حديدية ضيقـة ، تتمـايل مـع الريـاح إلـى الأمـام وإلـى الخلـف ، عبيرها يهدئ قلبها .

كل صباح ، عند الشروق ، كـانت تسقيهم . وقـد أحضرت روث الأغنام ، وخلطتـه بتربـة الجبـال الخصبـة حتى تخرج أشجاراً باسقة ، وأعطت لكل صندوق اسماً مختلفاً . كانت تشعر بالسعادة عندمـا تمـر بأصابعها علـى رؤوس الريحـان المرهفـة ، ليتطـاير عبيرهـا إلـى يديهـا . كان يطربها صوت ماكينة الخياطة القريبة منها ، واصلت أحلامها ، بنظرة بعيدة محدقة ، بعيدة جداً ، نحـو البحيرة اللامعة ، تاركة قلق أيامها خلفها .

كل ليلة ، دون انقطاع كانت تسـير مـن الأراضـي المزروعة حتى الجبال ، وفي يدهـا مظلتهـا الأسطورية ، تفتحها ثم تغلقها .

لم تمل القرية أبداً الحديث عنها ، وحيك حولها العديد من القصص . فقط عمتها أبقت لسانها صامتاً .

– لديها شخص ما في " بروسا " .

– سوف تتزوج ، في العام القادم .

– لن تذهب إلى " بروسا " بعد ذلك .

مجرد آراء تتعدد ، ولكنها تنتهي برغم ذلك دائماً بكلمات فيها تبجيل :

– ولكن ، يالها من عينين جميلتين ! لا يستطيع المرء مقاومتهما .

* * *

وفي الحقيقة كان هناك من لا يستطيع مقاومة هاتين العينين . في شبابها ، كانتا أكثر جمالاً عندما تحمران من بخار الماء المغلي وعندما تمتلئان بالدموع . كثيرون من المدينة كانوا ينظرون لها . فصدرها الكبير يثير الرغبة ؛ فهو يلفت النظر حتى تحت ملابسها القروية، وكثير من النظرات المحدقة كانت توجه إليه ، ووجهها الخجول يصطبغ عندما تُلقى الألفاظ غير المحتشمة في طريقها . كلمات تأتي وتذهب ، ولكن " آرباج " يظل باقياً معها .

جلست في إحدى غرف المصنع بأفكار وملابس فتاة القرية . وللتخفيف من ضجر ليالي الشتاء ، كانت هي

والفتيات الأخريات تتحدثن عن الحاجة إلى إعداد دوطتها.

في المساء ،عندما تكون الغرف حول المصنع مضاءة ، يصطحب " الأغا " زوجته وابنه ، في جولة في الفناء ، ويحيي النساء اللاتي يعملن تحية فاترة . ابن " الأغا " أيضاً اعتاد أن يأتي . أمسيات قليلة كانت كافية ، ولم يذهب بعد ذلك " آرباج " من الغرفة . ففي حضوره ، كانت " إيفا " تشعر بقلبها يرتجف .

كم تبدو هذه الأشياء ضئيلة الآن لها . الوقت سرق الكثير من ظلال هذه المشاعر . ولكن في كل مرة تجلس على صندوقها ، كانوا يتكاثرون حولها ببطء ، مثل مخلوقات تنبثق من الضباب حيث تسمع كالعادة :

– ولكن ، يا لهما من عينين جميلتين ، يا إيفا .

عينان جميلتان ، يا إيفا . لا يستطيع المرء أن يقاومهما .

وابن " الأغا " لم يكن قادراً على المقاومة ...

وفي ليلة مظلمة عندما كانت صديقاتها نائمات، نهضت " إيفا " من فراشها ، فتحت الباب بيدين مرتعشتين ، وألقت نفسها للخارج .

* * *

تلك الليلة ، كانت بداية حياة جديدة لها . لم تحلم قط بالأحلام المبالغة للفتيات الأخريات ولكنها عندما وقعت في شِباك ابن الأغا ، لم تكن تغرق في آمال عقيمة بأن

تصبح السيدة الأولى . بل كانت تتبع شعوراً طاغياً بالارتياح ، وإحساساً بالسعادة لاكتشافها السلام .

بقيت الليالي مظلمة ، وأماكن اللقاء مظلمة . وكانت هناك عندما فاجأتها رائحة عطر لشارب رجل من المدينة ، مما جعل عقلها يعود إلى القرية وإلى صديقاتها اللاتي كن تبكين دماً ودموعاً تحت وطأة أزواجهن القساة ، كاشفاً لها بالتفصيل كيف كانت عرائس القرية تعشن حيواتهن ، ممتلئات ببؤسهن المعتق . كانت ترى إبريق الماء الطويل المألوف كامناً خلف كل باب وكأنه تهديد . ارتباك ، صمت مغيظ ، تعبيرات خرقاء ، تصرفات منهكة - كلها صور متنافرة لهذه العادات السخيفة . هذه الأفكار مرت بذهنها مثل لمحة ، ومضات خاطفة .

تدريجياً ، غير طعم السعادة أيضاً طبيعتها . عندما بدأت عملها في الأزياء ، والذي أثر بشكل حاسم على شخصيتها . ولكي تسقط تحت وطأة أفضال الرجال ، فقد تخلت عن تقلقلها ، وتنازلت عن ملابسها القروية . ضيقت خصرها ، ضيقته كثيراً ؛ متوجهة نحو إظهار مقاييس مثيرة تركز الانتباه على نهديها . فبدلاً من الأحذية الواسعة، ارتدت الأحذية الرقيقة الضيقة . بل إنها تجرأت على ارتداء القبعات المزينة بريش النعام .

احتفظ خداها دائماً بجمالها ، رغم انتشار شئ كذرات الثلج عليهما . وتوهجت الأقراط الغالية من أذنيها ، وأصبحت صديقاتها تستمتعن بإدخال السرور عليها .

– آنسة " إيفا" ، سقط الثلج على وجهك ثانية . لقد تعلقت شمسان في أذنيك . مـاذا فعلتِ ؟ خصرك سوف يمتد قريباً حتى صدرك . ماذا يحدث ؟

كانت تشتعل غضباً ولكنها لم تكن تجيب . وذات يوم ، قالت :

– " آرباج " ، أخشى أنك سوف تخدعني . لقد فعلت كل ما طلبته أنت ؛ ولكن والدتك ما زالت تنظر إلي بطريقة سيئة .

– ما تعتقدينه خطأ . والدتي لا تعلم شيئاً . لا تقلقي . إنكِ تزدادين جمالاً كل يوم . في يوم آخر ، وضعت يدها على بطنها قائلة :

– إني خائفة يا " آرباج " . أخبرني بالحقيقة . هذا يكفي . دعنا لا نرتكب خطيئة ضد دماء بريئة .

– هل أنتِ مجنونة ؟ لقد أخبرت القابلة . وغداً سوف تذهبين إليها وينتهي كل شئ .

–لا تأخذه مني . لقد نما بداخلي . سوف أحتفظ بالطفل . بعدما فقدت عذريتي . هذا ما سوف يبقى لي منك . " آرباج " دعني أحتفظ به .

ولكن في اليوم التالي ، تحت ضغط تهديداته ، ذهبت إلى القابلة ، وأغلق كل شئ للأبد .

وعندها ؟

عندها عادت ثانية إلى القرية . وطلب رجال أغنياء كثيرون الزواج بها . وكانت تجيب بالرفض،

وتقول : أنا ذاهبة إلى " بروسا " .

قالت خالتها عندما علمت بما شاع :

-طفل !! هيا ، لا تفسدي حظك ، تخلِ عن هذه المشاغل . إنهم من " بروسا " ، ويتصرفون بمكر، أتوسل إليكِ يا صغيرتي .

لم يؤثر على حبها شئ . ولكن عندما ذهبت إلى مصنع الحرير ، وجدت كل الأبواب مغلقة .

المرأة التي سقطت من السماء

هاجوب أوشاجان

الأمسيات صعبة جداً في الجبال أثناء الصيف .
يتحول اللون الأخضر للأشجار على التلال المرتفعة إلى الأصفر ؛ وتبدو السحب الرقيقة الملتهبة متناثرة تصاعدياً بداية من حواف السماء الحمراء ، وفراغ الهضاب المواجهة مليئ بشيء يحمل لون البخور .
الخراف والماعز ، البيضاء والسوداء ، تجتمع سوياً من شتى أنحاء المرعى في هذه المناطق الهادئة المهجورة .
إنها واحدة من أجمل البقاع على سلسلة الجبال . وراءها ، يقف " الجبل الكبير " متفرداً ، كعملاق هائل بعيد ومتذمر.
يشكل اللون الأخضر المزدهر حول التلال منتصف الطريق المنحدر منه .
يحتفظ رعاة القرية بقطعانهم في المرعى طوال الصيف .
" النار ، يا رفاق ، النار ! " .
صوت " إيان " الذي كان آخر من سمع . دق بخفة على الأحجار بعصاه الغليظة ، ليخيف الماعز البطئ والعابث .
" أين أنت ، يا أخي ؟ في الواقع ، انتظرناك طويلاً" ، حيا كل من " آلو " و " كولو " . كانا بالفعل قد أوقفا قطعانهم بالقرب من الحقل ، في حظائر تتألف من أجمات طبيعية .
خيم الظلام على المنحدرات . هبطت النيران على

الجانب الغربي ، انطفأ اللهب في البحر . عندما يأتي المساء ، يصبح الهواء فجأة ساخناً فوق المرعى ، وتخمد الرياح لفترة . عندما يصبح كل شيء هادئاً ، يمتلئ الجو الفاتر بالروائح ، يسترخي الرعاة ؛ يستلقون بجانب عصيهم ، ملقين بحقائبهم ، مستسلمين للنوم ، على ظهر الحقائب وهم يثنونها لنصفين ، ليستخدمونها كوسادة .

" أوه ، دعونا نبسط أصابعنا الإحدى والعشرين هكذا ، " قالوا ذلك واستلقوا على العشب . وبمجرد أن لمست مؤخراتهم الأرض ، تحركت الكلاب إلى الداخل وظلت تنبح بحدة أثناء استلقاءهم .

استمرت هذه الاستراحة لخمس دقائق .

" هيا ، قم يا " آلو " ، قم وأشعل النار ! " .

" آلو " هو أصغر الرعاة . وقد تعلم تلقائياً كل الواجبات التي تقع على عاتق الأصغر . قام على مضض، ومسح عينيه ، وأقترب من النار حيث جذع شجرة غليظ جداً يشتعل ليلاً ونهاراً . أخذ الراعي نفساً عميقاً ونفخ بقوة في جذع الشجرة ، مما تسبب في تحول اللهب إلى اللون الأبيض الذي يتطاير ، ليكشف عن جمرة حمراء .

ركع بركبة واحدة على الأرض ، استخدم " آلو " كلتا يديه ليجمع قطع الفحم المشتعلة من على السطح المتوهج ويضعهم داخل النار . بعد أن نفخ بقوة فيها عدة مرات ، شعر الراعي بالحرارة المتوهجة على جانبي وجهه المبتهج .

" نجحت ، اشتعلت النار الآن " .

بعد ذلك بقليل ، استيقظ العجوز " أيان " وهو يئن. ألقى نظرة سريعة حوله ، ولا شعورياً ، استجاب لعادة اكتسبها من تعاليم الأيام الخوالي . بعد أن دخل الكوخ المجاور ، مال على دلو الحليب الخشبي ، وحمله متوجها نحو القطيع الراقد .

في هذا الوقت كان ضوء القمر قد ظهر ، فوق القمة البعيدة لـ " الجبل الكبير " ، كان السحاب أبيض كالحليب ، لامع كالفضة ، يضيئ المنطقة . ضوء القمر يسقط من القمة نحو البحيرة . والظلال تتكاثف على الوديان ، بينما نصف التلال المنخفضة يغمرها الضوء.

تحرك " أيان " بين القطيع النائم . تعرف الحيوانات بالفعل تفاصيل إجراء الحلب المسائي . حتى أن العديد منها لا يحرك أرجله ليدع الراعي يمر ؛ إنها فقط تواصل مضغ التبن .

يتلمس الراعي حلمات الماعز . عند الحلب في هذا المساء ، كان من الصعب إخراج لبن من ماعز حلب مرة من قبل . مع أن المتعارف عليه عند الرعاة ، أن الحيوانات تامة النضج ، أياً كانت ، والتي تشبه حلماتها الينبوع الدائم التدفق . عندما تضع وعاءً تحتها ، سوف تجده مملوءاً .

يعلم " أيان " أيضاً أين يرقدون . فعندما يحرك كل ماعز رأسه على مضض ، يدق الجرس الصغير المعلق

حول رقبته بصوت به القليل من الحزن . أعيد هذا المشهد مع قليل من الحيوانات قبل أن يأخذ " أيان " الدلو الخشبي الممتلئ نحو النار .

كان " آلو " هناك بالفعل . أخذ الدلو ، وصب الحليب في مرجل مغسول من قبل ، ووضعه على النار. ثم ذهب ليحضر ملاعق خشبية كبيرة كان يحتفظ بها في مقدمة سطح الكوخ .

غالباً ما يتبادل الرعاة الآراء حول أحداث اليوم . مزيج من التمجيد للمرعى الجديد المكتشَف ، والإطراء لنبع الماء البارد ، والمباركة للمنطقة الظليلة الرائعة .

سيطر المزاح ، والأفكار المنسية ، والبسيطة ، والغريبة ، على الوقت بينما على البعد يستقر المرجل الذي يشبه الفطر الأسود ساكناً فوق لهب يتزايد تدريجياً . تتصاعد النيران حتى جوانب المرجل ، وأحياناً تدور حول اللبن ، مثل ألسنة كبيرة دائرية .

قام الراعي الأصغر ؛ بقبعته في يد ووشاحه في قبضته الأخرى ، اقترب وانحنى على المرجل .

كان من الضروري أن ينتظر حتى يترسب زبد اللبن ويقل البخار . ارتسمت الخطوط الأولى معاكسة لبعضها وفوقها تنشر القشدة كراتها المهتزة . وبعدها مباشرة ، بلورات لا تحصى ، جميلة في ضوء القمر ، تنبثق من تحت الخطوط ، واحدة تلو الأخرى ، على نحو متصل ، تدفع بعضها . أصبحت آشعة القمر مبعثرة على

السطح الأبيض الضارب إلى الصفرة ، معطية شكل النجوم فوق جوانب القدر المعدنية ، وضباباً لطيفاً ، له رائحة زكية خفيفة ، تنتشر داخل القدر وخارجه . تكونت القشدة بكثرة .

على البعد ، فرد الرعاة نافذو الصبر أوراقاً مطوية في المساحة التي تكونت على شكل مربع كبير بين أرجلهم . قطعوا الخبز إلى قطع صغيرة في هذه المساحة. عندما بدأت رائحة اللبن يداعب أنف " أيان " ، ثم صدرت الدعوة . ألقت الأيدي القطع الصغيرة في اللبن . الملعقة الأولى عادةً ما تكون رشيقة . كل منهم أراد أن يأخذ نصيبه من سطح اللبن . غرفوا من المرجل لبعضهم ثم أخرجوا الملاعق وأمسكوا الأطباق . وعند تلك اللحظة ، ضحك الرعاة ، ومزحوا وأنهوا وجبتهم في سلام .

ظهر القمر ، بينما بدأت النار تخبو . اللهب يتراقص من جانب على الجبل ومن الجانب الآخر على البحيرة وهو يخمد . إنه موعد الانطفاء .

الراعي الأصغر ، كان منتعشاً تماماً ذلك المساء .
" هيا ، يا أخي ، اعزف على الفلوت ، وإلا لن تكتمل الساعات الجميلة ، " قال وهو يناشد " أيان " المحافظ ، مقبلاً رأسه ، وشعره ، ولحيته .

" دعني وشأني ، يا ولد ، هذا ليس الوقت الملائم".

" أرجوك ، يا أخي ، سأفعل أي شيء من أجلك .

اعزف القليل ، لا أسألك أن تعزف كثيراً " .

يود " أيان " لو يرفض . ولكنه لا يستطيع أبداً كسر قلوب الصغار . هبط ببطء إلى حيث ترك وشاحه وأخرج نايه ، ومسح مقدمته براحة يده مسحة خفيفة ، سعل واعتدل .

" الآن ، اسمعوا " .

أصبح الهواء أدفأ والضوء أكثر . ومن وقت لآخر يصدح صوت حاد لجرس عبر المراعي . " أيان " مغنٍ بارع . أنغامه البدائية رتيبة وبطيئة ، لكنها ليستَ مضجرة. الأغاني القصيرة التي كانت تقدم كهدايا لفتيات القرية سرعان ما كانت تصيبهن بالضجر.

" أخي ، ماذا عن غناء الأغنية التي ألفتها لإبنة (آغفن) ؟ "

أغنية ابنة " آغفن " أغنية قديمة ، وهي منسية الآن تماماً . تعلمها " أيان " في شبابه . وكان يعرف الفتاة أيضاً . حكى قصتها .

تتوالى الأغنية الآن متتابعة من نايه ، ولكنها الآن حارة ، وحيوية . كان الراعي يرفع الناي عن فمه على فترات متقطعة ، ويضعه على ركبتيه ويغني ، بينما تميل رأسه إلى جانب واحد . ويتحرك الراعيان وهما يستمعان إلى المقطوعات التي يعزفها .

بدأ الرعاة جميعاً يبوحون بأسرار القرية . أشياء لا توصف ، أمنيات كانت ستبقى غير معلومة ، أصبحت

حية بداخلهم . جاء السبات وأحاط بقلوبهم . جميعهم كانوا يتعذبون بنفس الأفكار ، ونفس الحلم .

" آه ، لو تسقط امرأة من السماء " . قال " آلو " ، الراعي الأصغر ، معبراً عن رغبتهم المشتركة .

" ها ، لقد عبرت بالتأكيد عن الشيء الصحيح . يالـ حلاوة ما يلفظه فمك ! "

" يا ولد ، " أكمل (آلو) ، " بعد هذه الوجبة سوف أعانقها وأرقد معها " .

" ألن أحصل على نصيبي منها أيضاً ؟ " قاطعه " أيان " فوراً . " لقد عشت حياتي ووقتي حتى يأتيني الموت ، ولكن أصابعي لم تلمس بعد وجه امرأة " .

" يا أخي ، إن شعرك أبيض أيضاً . هل تعني أنه بنفي تلك الخبرة عنك ، فإنك تريد أن تعود شاباً ثانية ؟ ماذا تستطيع أن تفعل مع امرأة ؟ " أكمل " آلو " بإثارة ، مديراً وجهه نحو " كولو " ، الذي يجلس منتصباً الآن ، وكله آذان صاغية . " أليس ذلك صحيحاً ، يا أخي ؟ " .

ضحك " أيان " على رفيقه الصغير المثار ، ولكنه لم يستطع أن يصر على أسنانه .

" يا أيها الصبي ذي الأنف الراشح ، إنك حتى لا تعلم ما هو شكل المرأة ـ! لأنك بالأمس كنت ما تزال مراهقاً ! " .

" إنك بالكاد سوف تقضي ليلتك ، يا أخي " .

" ماذا تعرف أنت ؟ "

" إنني أعرف " .

" هيه ، ألن أحصل على نصيبي ؟ " هذه المرة كان " كولو " هو من قاطع ، فقد كان واضحاً أنه تضايق من كونه متجاهلاً .

" كل ما نحتاجه ينسجم معك ، " سعل أيان بهدوء.

" لقد تجردت من كل ما كان لديك ، ولذلك تفكر في الاهتمام بامرأة ، أليس كذلك ؟ يا لها من نكتة ! "

كان صوت " آلو " عالياً بالفعل . ويداه تتحركان يساراً ويميناً كما لو أنه يبحث عن شيءٍ على الأرض .

قفز " كولو " على قدميه مهتاجاً .

" أنظر ، إنك لا تستطيع أن تفعل الأشياء بطريقتك. المرأة لي " .

وقف " آلو " على قدميه أيضاً .

" سوف تكون لي " .

" إنني أقول لك . أنها ستكون لي " .

حمل الراعيان عصيهما وأقتربا من بعضهما ، على وشك أن يهاجم كلاهما الآخر.

" سوف تكون لي " إنه صوت " أيان " الذي قام ووقف بين الاثنين .

دون شك كانت المشاعر تتحكم في تصرفات الرعاة . حمل ثلاثتهم العصي في الوقت نفسه ، وكلاً منهم يصرخ " سوف تكون لي ، سوف تكون لي " وهجموا على بعضهم .

بدأت العصي تتحرك بسرعة ، يميناً ويساراً ، إلى أعلى وإلى أسفل . تركت الكلاب أماكنها ، واقتربت من المتعاركين . رفعت الخراف رؤوسها ، وقد أخافتها الفوضى والشجار .

أول من سقط أرضاً كان " آلو " . يليه " كولو " . بقي " المحافظ " بعدهما لفترة طويلة . بعصا في يده ، وهو يصيح بغرور : " سوف تكون لي " .

كان " كولو " هو أول من بدأ يستعيد عافيته من الساقطين أرضاً .

بينما " آلو " يرقد على ظهره . اقترب منه " المحافظ " ، إنحنى بالقرب من رأسه ، ورأى علامة سوداء في وجهه ، فسأل :

" ماذا حدث لك ، يا بني ؟ "

شعرت أصابعه بحرارة الدم المندفع . مما أنسى " المحافظ " مشاعره .

" كولو ، كولو ، أسرِع واحضِر بعض الماء ! "

استمع " المحافظ " إلى قلب الراعي الغرير . سمع دقاته ، فاستراح . عندئذ ، استخدم أصابعه ، ونثر المياه فوق وجه الصغير وعلى صدره المفتوح وتحت إبطيه .

كان " آلو " في إغماءة .

استمر " المحافظ " في تقديم المساعدة ، وهز الشاب الصغير ، وسحب لسانه إلى خارج فمه .

" استيقظ ، يا بني ، قم ، فقط استيقظ وسوف

تكون المرأة لك " .

" ستكون من نصيبك ، دعها تكون لـك ! " قاطعـه " كولو " .

بعد فترة قصيرة ، كان الراعي الصغير يقف على قدميه ، ورأسه المجروح تلفه ضمادة من أوراق التبغ .

وعندئذ ، كانت المرأة له ، ثمناً لدمه المهدر .

تعجل الموت

ميشيلميناسيان

في المطار ، أضاءت لوحة الإعلانات حاملة جملة " توجه للموظف " بدلاً من تحديد موعد الوصول. اعتقد " ديكران " أن الضباب أو الثلج ربما تكون قد عطلت رحلة والده بأمر من الله .

على أي حال ، كان شباك الحجز ، وكل المكاتب مغلقة . الموظفون في زيهم الأحمر والأزرق يتجمعون معاً ، على الرغم من تساؤلات الجمهور المنتظر ، لم يقترب أحد من الشباك ليقدم إجابات عن الأسئلة المتراكمة.

بعد قليل اقترب زحام أكبر من شباك الحجز . وظل الموظفون يرفضون التحدث بأي كلمة سوى " ليس لدينا معلومات " . ابتعد " ديكران " عن الشباك وشق طريقه وسط الزحام . حتى وجد بعد قليل بار به تليفزيون مضبوط على قناة " ميامي " المحلية . لقطات مصورة للطائرة المشتعلة وهي تغوص في البحر عند الشاطئ الجنوبي تعرض عدة مرات .

طلب " ديكران " بيرة وشاهد الحطام المشتعل، والطائرة الغارقة التي ترفض الطفو. مرت عشر دقائق قبل أن يلحظ أن التعليق المصاحب للصورة كان بالإسبانية. ولكن الكلمات فقدت معناها بأي لغة. الطائرة بالفعل كانت مشتعلة ومحطمة في البحر. تلك كانت الصورة التي انطبعت في عقله. هذه الذكرى لا تحتاج لكلمات .

رغم أن سيارته كانت تقف في مرآب المطار ، إلا أنه أخذ سيارة أجرة للبيت في "حصن لودرديل " . وبمجرد وصوله للمنزل أدار التليفزيون وضغط زر غلق الصوت .

كل القنوات المحلية ، والـ " CNN " ، والـ " MSNBC " تعرض نفس اللقطات . مرات ومرات ، الطائر العملاق يضرب الماء متحولاً إلى لهب وحطام ، وريش أبيض هو الدخان . الصورة كانت تكفي . بينما تأكلها النيران ، ضربت الطائرة المياه وساد الصمت الذي طوق " ديكران " .

بعد قليل ، رن جرس الهاتف مراراً في الظلام . لم يلتقط السماعة . أخبار موت والده كانت قد انتقلت عبر اللقطات المعادة . رن جرس الهاتف ثانيةً ، وتُركَت رسالة ثانية على جهاز تسجيل الرسائل . الضوء الأحمر الذي يظهر ويختفي ، انضم إلى الصورة المضيئة على شاشة التليفزيون ، في الغرفة الصامتة .

رغم أن " ديكران " لم يكن جائعاً ، فقد وجد نفسه أمام باب الثلاجة المفتوحة . وقد التصق كارت كان والده قد بعثه له منذ أسبوع بمغناطيس على باب الفريزر . كتبت يده هذه الكلمات ، لعق لسانه هذا الطابع ، ولصقته أصابعه على الكارت . إنه آخر جزء منه ، سطح وبُعديَن، تابوت ٣ × ٥ بوصة . قرأ " ديكران " الكارت عدة مرات ولكنه ما زال لا يفهم شيئاً منه . ماذا تعني " أراك قريباً "

الآن بينما تلتهم أباه المياه ، النار ، الطائرة ؟

في الصباح التالي ظهر محامي من شركة الطيران أمام بابه . قاده " ديكران " إلى المطبخ ، باب الثلاجة مازال مفتوحاً ، تكونت الآن بركة من الماء على الأرضية. سمع " ديكران " فقط شظايا من الكلام ، أجزاء من الأفكار: " المستشار القانوني ينصح " ، " المشاركة الوجدانية " ، " تعويض " ، " شهادة خطية " ، " الفقيد ".

نظر " ديكران " إلى المحامي . كان فم الرجل يتحرك ؛ وكانت الكلمات تتدفق . أدرك " ديكران " أخيراً أن المحامي أعاد نفس الجملة عدة مرات .

" كنت أقول ، ما جنسية اسم [ديكران] ؟ كان هذا اسم أبيك أيضاً " .

" أرمني ، " سمع " ديكران " صوته يجيب ، ولكن الكلمة خرجت غريبة من حنجرته وشفتيه . أدرك أنها المرة الأولى التي يتكلم فيها منذ ترك المطار في اليوم السابق .

فتح حقيبته ، وأخرج المحامي ملفاً مملوءاً بالوثائق وعليه اسم " ديكران " مطبوع بخط سميك على مقدمته . أعطى " ديكران " قلماً ، وأشار له المحامي على مكان التوقيع في مكانين على الورقة الأخيرة . في كلاهما، رسم " ديكران " بحرص سمكة صغيرة ، الرمز القديم للمسيحيين ، والده القس البروتستانتي ، علمه إياها

عندما كان طفلاً . أغفل المحامي الإشارة إلى الطائرة الغارقة في البحر ، أصبح غاضباً ، ساخطاً ، أغلق حقيبته بعنف وغادر . أدار " ديكران " التليفزيون .

بعد ثلاثة أيام ، عاد "ديكران " إلى المطار . كان والده قد سافر من " فلوريدا " إلى " هايتي " ليزور إرسالية تديرها كنيسته . مجمع صغير فوق التلال في " بورت أو برينس " ، الإرسالية تحتوي مدرسة، مستشفى ، وتقدم خدمات يوم الأحد .

" يقولون أن هذا البلد يؤمن ٩٠ ٪ بالكاثوليكية و١٠٠ ٪ بالسحر الأسود " ، قال والده ذلك ذات مرة . " ولا يترك هذا مجالاً لرسول بروتستانتي من عند الله ، خاصة لو كان أرمينياً " . وكان والده يضحك حينذاك ، صوت ناعم ولكنه قوي ما زال يرن في رأس " ديكران ".

في الطريق إلى إرسالية والده ، مر التاكسي عبر شوارع تراكمت فيها القمامة وصناديق مملوءة بها ترتفع إلى منتصف العمارة . يبدو أنه لم يكن هناك مرور . السيارات تمر في شوارع جانبية ، دائماً ما تتجاهل إشارات التوقف ، ولم يرَ " ديكران " ضوء إشارة المرور. بعد ساعة ونصف من تركه المطار ، وصل " ديكران " إلى المجمع ولكنه طلب من السائق الانتظار حتى يُلقي نظرة . كانت المدرسة مغلقة ، والمستشفى مهملة والشخص الوحيد الموجود بجانب مجموعة من الدجاجات كانت امرأة عجوز ترتدي نظارات سوداء لم تستجب لا

لفرنسية " ديكران " ولا إنجليزيته ولا للهجة السائق المحلية .

بعد ذلك ، في " أولفسون " ، الفندق الذي اكتسب شهرته من " جراهام جرين " ، جلس " ديكران " على البار وأخرج كارت أبيه من جيبه . مرر أصابعه فوق الكتابة ولكنه ما زال لا يستطيع فهم الكلمات أو الضياع الذي شعر به . أين أبوه ؟ رغم مئات الأجساد التي انتشلت من البحر ، فإن والده لم يكن بين هؤلاء الناجين .

في الصباح التالي ، أخذ " ديكران " تاكسي للتجول في مدينة " بورت أو برنيس " عبر السوق الحديدي وعندئذ سأل السائق أن يأخذه إلى رصيف الشحن. نساء يبعن مواد غذائية ، ملابس مستعملة ، فرش شعر ، أدوات مطبخ ، تجلسن تحت الشمس المحرقة بينما يظهر خلفهن شحنة من الصناديق الخشبية عليها العلامة الزرقاء للأمم المتحدة .

تجول " ديكران " بعيداً عن مركز الحركة ووجد مكاناً تنحدر عنده الأرض . العديد من المراكب كانت مربوطة إلى الرصيف الخشبي المكسور . كان قارب صيد قديم محاطاً بإطارات سيارات حول هيكله وأصبح معداً للنزول إلى البحر . احتضنته الأمواج في عرض البحر . زحام على الرصيف ، كان هناك حوالي ثلاثين رجلاً أو أكثر . تجمع القليل من النساء والأطفال بالقرب من المؤخرة . إحداهن تحتضن طفلها ، تقابلت نظراتها مع

نظرات " ديكران " ثم نظرت بعيداً بسرعة .
" إلى أين يذهب هذا القارب ؟ " سأل " ديكران " أحد الملاحين البعيدين عن الحشد .
" ذاهب إلى أمريكا ، فلوريدا . شاطئ ميامي " .
" كم ؟ كم يدفع هؤلاء الناس ؟ "
" أربعمائة دولار . دولار أمريكي "
أخرج " ديكران " عشر ورقات من فئة الخمسين دولار من محفظته . " خذ ، أعطِ هذه لقبطانك . واحتفظ بمائة لنفسك " .
نظر الملاح إلى " ديكران " للحظة ، ثم ابتسم .
" أنت صحفي ؟ ربما من رجال الأمم المتحدة ؟ تعالَ ، اذهب إلى أمريكا " .
خطا " ديكران " فوق الرصيف وتشبث بحبل مربوط بأحد الإطارات . " فلوريدا " . شاطئ "ميامي" . سوف يجد والده . هناك في البحر الجائع .

دعنا من التظاهر

إستر هيبويان دي فرايز

ولد أبي في ١٩٢٤ ، ولكن تاريخ شهادة الميلاد كان ١٩٢٣ . كان والدي أحياناً يرثي نزوحه وإنتقاله إلى " إيزرورَم " عندما أتم السابعة عشر . الصورة لولد بلباس رسمي ، قوي وذي وجه ناعم ولا يجرؤ على الحلم . " أفضل سنوات عمري ، اختطفت مني ، هكذا ببساطة ! " كان يعلِق ثم يذهب في تساؤلاته الملحة التي يقطعها بأقوال من نوعية : " اعتقدت أنه كان يجب أن أستفيد من وقتي . وقد فعلت . هذا كل شيء" .

تحسباً للتوترات العالمية ، ضمه الجيش التركي إلى الإحتياط ، جردوه من شعره ، ومن بندقيته ومن كل شيء ، فقط ليجعلوه يعرف من الآن فصاعداً ، أياماً ، وسنيناً – حتى ، لن يكون له علاقة بالأمر .

" إطلاق سراحك هو أسوأ شيء يجب أن تتوقعه ، " قال الضابط وهو يصرخ . ولذلك ، خلال أربع سنوات لا تنتهي ، كان " آجوب كاديريان " يشارك الآخرين المشكوك في أسمائهم وولائهم ، في حفر الطرق ، وأكل العصيدة ، والنوم مع الحشرات ، وأحياناً لعب الكرة لتسلية الجنود .

بعد ذلك كان والدي ، بطريقته المقتضبة ، يستدعي ذكرى الفاصوليا الفاسدة ، مدخني الحشيش ، مباريات كرة القدم ، صدامه مع " داريو مورينو " عند زيارة والدته لواحدة من قواعد الجيش . هل كان ذلك في

" آدانا " أو في " أزمير " ؟ لا يستطيع والدي أن يتذكر .
" لقد كانت جميلة جداً ، بوشاحها الأخضر وغطاء رأسها البني عند مغادرتها للقطار ، " كان يقول ذلك فقط . أحداث ، تواريخ ، أسماء أصبحت الآن في طي النسيان. وكأنه يلتصق بمجموعة من الذكريات ، ظل أبي يتحدث عن صورتين لأمه . الأولى ، سيدة القطار ، الصغيرة والجميلة ، المنعزلة حتى لا تتعرض للجرح ، والتي فور قراءتها لأخبار الدوسنتاريا في المعسكر ، بحثت حتى توصلت لضابط ذي رتبة عليا [عم أحد جيرانها] لتطمئن على أحوال إبنها المحبوب عن طريقه . والثانية ، صورة على شاهد قبرها في مارسيليا ، الإبتسامة باهتة ، هازئة تقريباً ، كما لو أنها كانت تستطيع رؤية السخرية اللا متناهية من كونها ترقد تحت التراب الفرنسي بعد أن وهبت أهل مارسيليا حياتها كلها .
" إذن ، أنتِ لا تعلمين تاريخ ميلاد والدتِك ! " صرخت الموظفة عبر التليفون . كانت شقيقتي محرجة وتحاول أن توضح سوء التفاهم .
" اسمعي يا سيدتي ، ولدت أمي في ٣٠ أغسطس. هذا هو التاريخ الذي كنا نحتفل فيه بعيد ميلادها، أنا متأكدة . ولكن ثبت في السجلات الرسمية أنها ولدت في تركيا ، في مدينة " بستانسي "، نعم في مدينة ب – س – ت – ا – ن – س – ي كما تقول السجلات أن تاريخ ميلادها ١٥ أكتوبر . ولكني مرتبكة، إنني آسفة . ففي

الحالتين ، العام هو ١٩٣٣ " .

" إذن ، كم أماً لديكِ ؟ " ردت الموظفة الفرنسية .

" اسمعي يا سيدتي ، لدي أم واحدة فقط . أنا لست مجنونة . ولا أصطنع أي خداع هنا . هل تستخرجين لنا المستند أم لا ؟ "

" أنتم الأجانب تعرقلون عملنا بالتأكيد ، " قال الصوت . تضايقت شقيقتي من مناداتها بـ " الأجنبية " حيث أنها تتحدث فرنسيةٍ ممتازة ، وتعرف العادات الفرنسية ولها أصدقاء أيضاً ، وغيرت اسمها الأول إلى اسم فرنسي كما فعلنا جميعاً في مكاتب الهجرة في " نانت".

أغلقت شقيقتي التليفون بعنف . استدارت ناحيتي. " كيف ولدت أمي في أغسطس وسُجلت في أكتوبر ؟ " .

غالباً ما كنت أتساءل إذا كانت تواريخ الميلاد الخاطئة لعنة على أفراد العائلة أو على الحكومة التركية غير الكفوء . عندما ولدت شقيقتي ، أصروا على تسجيل السنة الصحيحة ، والشهر الصحيح ، وحتى اليوم الصحيح. هل كان ذلك مجرد حظ أو إحساس متزايد بالواجب ؟ مهما كان السبب ، فذلك كان الوقت الصحيح ، كما فكرت عائلتي ، لمغادرة البلاد .

وتوجهنا إلى وجهات مختلفة .

" ماذا ! أطفالك لم يتم تعميدهم حتى ؟ فليسامحك الرب ! " صرخت الخالة ماري عندما تقابلنا كلنا بعد

سنين في ضاحية كئيبة في باريس ، مشروع بلدة في الجزء الجنوبي من المدينة حيث الاضطرابات التاريخية والنوايا الطيبة تختلط معاً في العائلات الفرنسية من الطبقة الكادحة، العرب النازحون من بلاد نامية ، اليهود المطرودون من الجزائر ، ومهاجرون مثلنا .

ذلك اليوم كانت شقتنا تجمع أرمن من أثينا ، زيورخ ، هامبورج ، مارسيليا ، وتورنتو ... أعمام ، خالات ، وأولاد عمومة ، كلهم إغتربوا عن إستانبول ، يكافحون من أجل إعادة العلاقات السعيدة ولو لمرة واحدة. كانوا يتذكرون النكات ، يستحضرون الأصدقاء الذين تزوجوا وغيرهم ، يغنون الأغنيات الحزينة ، يحكون عن حيواتهم الجديدة ، نجاحاتهم وأحزانهم ، يضحكون ، يبكون ويتحسرون ، يتناقشون ، يشجبون ، ثم ينبذون كل الموضوعات .

كل ذلك في مساء واحد ، رغم أن الوقت كان يمر عليهم . لم أستطع المشاركة كلياً ، مثل أبناء أعمامي الذين كانوا يتحدثون اليونانية ، الألمانية ، الفرنسية ، الإنجليزية وبعض الأرمنية . لطالما اعتقدت أن آباءنا كانوا يحاولون بقوة لتجديد الصلات عندما أصبحت الصلات ضبابية عبر السنين بالإغتراب والقراءة بصعوبة في البلاد الأجنبية .

" الخالة ماري على حق ، منتهى الحق . إنني خجلانة ، " قالت لي أمي مؤخراً في المطبخ بينما تصب القهوة في أقداح صغيرة من الصيني . " ليسامحنا الرب .

ليسامحنا الرب " .

كنت أعلم حينئذ أن أمي تبتعد عني وأنها سوف تبقى حتى يغادر ضيوفها ثم ترحل . قلت بهدوء : " لماذا هذه الجلبة ؟ أطفالي آدميون . رائعون . فلا تضايقوني بقول [ليسامحنا الرب] " . خرجت أمي .

لم أكن أريد إيذاء مشاعرها ولكنني لن أسير وراء أفكار الخالة ماري العتيقة . فأنا لي حياتي الخاصة بمفاهيمها المختلفة . تطور الوقت ، اكتشاف الفضاء . تنظيم المواقف والقدرات . كل شخص يكافح لينتمي لمكان. طفل ابن عمي " تالين " عَمدَه قس ألماني . " فماذا إذن ؟ " فكرت .

" يا له من قس وسيم ، يا له من احتفال رائع ، " أصرت الخالة ماري . أخذت أفكر في طفل نصف أرمني يتلقى المباركة من قس ألماني ربما يكون أجداده قد أحرقوا اليهود ، والغجر وربما الأرمن الجائلين . الحياة نكتة .

على الرغم من مساعدة شقيقتي ، فقد أسقطت القهوة في صحن الفنجان عندما كنت أتحرك في غرفة المعيشة الضيقة .

" آني ، ألم تعلمي بناتك أي شيء ؟ " قالت الخالة " جايان " بسخرية .

" تخلصوا من كل شخص ومن كل شيء ، " اقترح العم " كريكور " بطريقته الصلفة . إنه يعتبر نفسه

حكيماً أكثر من أي فرد آخر فقط لأنه تنقل من فينيسيا إلى باريس ثم هامبورج ويستطيع أن يطلب وجبة بثلاثة لغات.

" خنازير . أخبرتك أننا تحولنا إلى خنازير . تأكل سجق الخنزير على الإفطار ، السجق في الغذاء ، ثم السجق ثانية في العشاء . ماذا يمكن أن تكون غير خنزير؟ إنها حقيقة بسيطة . هيلدا ! أعيدي الأطباق . سوف نشرب كالخنازير " . كان هذا عمي " فاروج " . الذي لمحت السخرية في صوته . نظفت بقع القهوة بالمناديل الورقية ورفعت الصينية ثانية .

عندما عدت إلى غرفة المعيشة ، رأيت الخالة " ماري " تدفع أطفالي إلى تقبيل تمثال صغير من البلاستيك للسيدة العذراء .

" خالتي ماري ! " صرخت . " ماذا تفعلين ؟ "

" أظهر الإحترام لأمنا في السماء ، " أجابت بدون إنزعاج ." لقد أحضرت بعض الماء المقدس أيضاً . يمكننا أن ننثره على أطفالك " .

" لا يمكن ! " قفزتُ في ثورة . ناولت، الصينية إلى أختي ، مسقطاً القهوة مرة أخرى . أحسست بغضب أمي عليَّ . كانت تود لو انني أكثر تكيفاً مع الوضع . أتكيف مع ماذا ولماذا ؟ أبعدتُ إبني وإبنتي عن الخالة ماري . كان يجب أن أغادر ولكنني شاهدت عمي "فاروج" يغمز لي .

" لا تأخذ ما تفعله بجدية . من أين تعتقد أنها

حصلت على الماء ؟ لقد حصلت عليه من جار يوغوسلافي ربما حصل عليه من ماسورة مياه مطبخها ليسخر من ماري المسكينة " .

البعض ضحك على ذلك والبعض ارتجف من هذا التجديف . كان أبي هو من أنهى الحوار . " الآن ، لو كان الله هناك ، دعه يشاهدنا . لن نتكلم . الكلام لا يفيد . ماء مقدس ، لا أفهم . النساء يتحدثن ، لا أفهم . آني ، بحق الإله ، أين القهوة ؟ " .

عندما توفيت الخالة " ماري " ، أراد العم " فاروج" أن يموت أيضاً . ظل يبكي ويبكي حتى لم تعد عيناه قادرتان على البكاء . وعندئذ ، قرر العودة إلى " إستانبول " ودفن زوجته في القسم الأرمني من " سيزلي" . ماذا بقى له في ألمانيا ؟ برد ، طقس بارد . دون شمس . حياة عمال المصانع . أغلبها ورديات ليلية . الساعات تمر ، وتنقضي . ليالٍ متشابهة لا تنتهي . ليالٍ من العزلة ، والضجر ، وبلاً فائدة ، سوى الشجار مع المهاجرين الآخرين . وفي يوم تتحول كلمات الثناء من رئيس العمال إلى ترقية . وأخيراً معاش جيد . ولكن حبيبته " ماري " لم تعد موجودة . والآن كم من الليالي ستكون بهذه العزلة .

استبدت به الغربة . كانت تخنقه . لم يستطع أن يسلم " ماري " لهذه الأرض الغريبة . لا يبدو له ذلك صحيحاً . كان الخيار الوحيد هو العودة . سأل الرهبان أن

يقدموا أفضل جنازة واكثرها حزناً .

أخذ يوضح كيف أن ابنه " بيدروس " أعد ترتيباته بالإتفاق معهم منذ سنوات . لم يكن يعرف متى . ولكنه كان يعرف الحديقة تحت الشمس الملتهبة ، الرمال في المدينة ، رائحة الميناء ، المعديات بين الجزر . ياااااه ، كم استغرق من الوقت حتى إضطجع على ظهر المركب ، ربما طلب الشاي ، واستمع إلى صليل الملعقة في الكوب ذي الحافة المذهبة ، معرضاً شبابه كله لنسيم البحر ، ثم يمشي محاذياً لرصيف السفن ليجد فتاته الأرمنية ، خجولة ومترددة ، بأرجل جميلة وعيون مليئة بالشجن . كلما فكر أكثر في العودة ، كلما تضاءل الألم في صدره . ربما حتى يستقر هناك . لقد افتقد الصيفيات .

" كيف تريد أن تضع الزهور على قبرها ؟ " انفجرت " تالين " وكأنها تهذي .

" شيء آخر : عندما يأتي الشتاء هنا ، يكون الشتاء هناك " .

" كم كان عمر الخالة ماري ؟ " سألتُ أمي .

" حسناً ، هي لم تكن تقول . لا أحد يعرف بالتأكيد. بجانب أن الاحتفال بمولدها لم يكن الاحتفال بيوم مولدها الحقيقي " .

" ماذا تقصدين ؟ هذه ليست إحدى قصصك ثانية؟"

" حسناً ، في تلك الأيام ، عندما كان طفلاً يموت ، نحتفظ بشهادة ميلاد للمولود القادم . الخالة ماري أخذت

شهادة ميلاد أختها المتوفيـة . هـذا هـو كـل شـيء . كـانت هذه عادة شائعة " .

" تخيل وأنـت تكـبر فـي ظـل شـقيقتك المتوفـاة ، " نبست شقيقتي في إشمئزاز .

" لا عجب في أننا جميعاً مشوشون تماماً ، " قلـت لـها .

" كفى ، " قالت أمي . " كفى كلاكما ، أعني هذا".

زفاف العروس

ف . ل . ديرديريان

سيروب وأنـي " مسروران . ابنتهما " آرمينـا " ستتزوج . الدعوة تقول " مراد ، شاركنا فرحتنا . تعال ".

" نتـمنى أن تكـون معـك دراهـم " زوجتـي متشائمة. " أنت لا تفكر في الذهاب ، أليس كذلك ؟ "

هززت كتفي ، ولكني أعلم أنني سأذهب . أستطيع أن أسمع أبـي الراحل بصوته الهادئ المعتدل : لقد مر الوقت يا مراد . سامح . الزواج مقدس . لديك ابنة ، كيف تشعر ؟ " سيروب هو أهلك ، عائلتك . يجب أن تذهب .

" ابن عم والدي .. "

" ريك ، والـدك لم يحضر زفافـنا " . اسـمي الأمريـكي هو " ريــك " . باللغة الأرميـنـية هو " مراد " . اسمي الحقيقي هو " مراد " . " ليندا " من (الأودار) ، غير أرمينية ، وقد رفضها والـدي . مـاذا أستطيع أن أقول ؟ إنـه زواج مادي ، وهو ما زال على التقاليد القديمة .

استرجعت كيف تعبت حتى وجـدت " سيروب " . كيف اقتفيت أثره بعد وفاة والده . ليس لدي عائلة أخرى. كان " سـيروب " يعيش فـي " أرمينيـا السوفيتية " . ربما كانت رحلة آثمة ، أو أنه موت والـدي ، ولكنني تعاقدت على رحلة كاملة إلى " أرمينيا " . بينما بقيت " لينـدا " مع "جيني" .

كانت " أرمينيا " بلـداً فقيراً . فقط كـانت الكنيسة

غنية بالذهب ، الرسوم ، ومخطوطـات الزخـارف - ثـروة هائلـة . بعـد أن دفعت للدرجـة الممتـازة أصبحـت ضمـن جولـة الدائـرة الداخليـة وذهبـت لأقـابل بطريـرك الكنيســة الأرمنية في المدينة المقدسة . كل أفراد الجولـة كـانوا مـن الأثريـاء - جـراح التجميـل " ماليكيـان " ، و " بـيرج بيدروسيان " ملك صناعة الأحذية . وكل فرد منهم كـان جديراً بـالاحترام تمامـاً ، وأنيقـاً جـداً ، مـا عـدا فرديـن غريبين.

كان " هيج " صاحب أسنان سيئة ، وعيوناً بـارزة كعيون كلب صيـد ، وشـارباً أبيض كبيراً . رفيقـة سفره كـانت مفاجـأة ، فتـاة بعيون حزينـة فـي العشـرينات مـن عمرها واسمها " جارين " . فـي البدايـة اعتقدنـا أنهمـا أب وابنته . وبمرور الوقت سرت شائعات عنه وعن الفتـاة . هل كانت ممرضته ، أم سكرتيرته الخاصة ؟

لكنـي تحاشـيتهما ، كمـا فعـل الجميـع . كـانت " جـارين " رفيقتـه . تفعـل كـل شـئ لـه - تحمـل أمتعتـه ، تساعده على المرور فوق الأحجار . حتـى أنهـا تقـص لـه أظافره . كليك، كليك ، كليك ، تتطـاير الأظـافر الصفـراء الخشنة في خلفية أوتوبيس الجولـة . وفـي مقـابل تفانيهـا ، كان " هيج " يعاملها بازدراء . كل مساء كان صوته الحـاد يرتفع من مائدتهما ، " جارين ، هل يجب أن تأكلي ثانية ؟ إنكِ بقرة غبية " لقد أذلها . ويا للعجب ، ظلـت " جـارين " لأربعة عشر يوماً كاملة ترعاه . مرة واحدة فقط فـي عيد

العرش كادت أن تتوجه إليه باللوم .
" لو سمحت يا أستاذ . غير مسموح لها بالتدخين".
لقد حرص على تنعيم وجنتيه بقوة مثل الرجل في اللوحة المروعة ، الصرخة ؟ نفخ الدخان في وجهها وضحك . ضحكة شيطانية .
محطتنا الأخيرة كانت " إيريفان " . لا توجد هواتف بأي من الفنادق ، ولكنني لم أكن لأغادر دون أن أجد " سيروب " ، ابن عمي . في ذلك الحين كانت "أرمينيا " جزء من الاتحاد السوفيتي ولا تستطيع نسيان ذلك. كان كل شئ غاية في السرية . تواجد الجواسيس . راقبت المخابرات السوفيتية السائحين ، تحكمت في اقترابنا نحو الأشياء ، فقط تركتنا نرى الكثير .
وكلما زادت صعوبة الوصول إلى قريبي ، كلما أصبحت أكثر تحديداً . كل يوم أسأل نفس السؤال ، " هل تستطيع أن تساعدني لإيجاد (سيروب مرديروسيان) ؟ "
موظفو الاستقبال ، المرشدون ، كل واحد كان له عذر . " إنه ليس مسجلاً . إيريفان مدينة كبيرة . هل لديك معلومات أكثر من الاسم ؟ " .
ليلتنا الأخيرة في " أرمينيا " ،كانت شاقة من كثرة المراوغة ومعرفة أنه كان لابد إما الآن أو لا يمكن للأبد ، خرجت بخطة . كنت أئن ، وأمسك معدتي .
عندما رحلت مجموعتي ، استأجرت سيارة أجرة.
" إنني أبحث عن شخص ما ؟ هل تستطيع مساعدتي ؟ " .

" لا توجد مشكلة " .

كل السيارات الأجرة كانت تفعل كل شئ، سوق سوداء ، أعمال خاصة ، كل خطة يمكن أن تتخيلها . قادني في جولة لأكثر من ساعة ، مارا بدار الأوبرا ، مبنى البرلمان ، ثم إلى الفندق ، كان ضوء الشفق يتلاشى فوق نهر " هرازدان " . دار حول فندقي للمرة الثالثة ، وأخيرا أمسكت بياقته ، " أبحث لي عن منزل سيروب مرديروسيان الآن ، أو سأسحق رقبتك بهذا القماش " .

غمغم باللغة الروسية ، ولاحظت أنه ربما لا يكون قد فهم شيئاً مما قلته . ولكنه خرج فوراً من ميدان البرلمان ، ماراً بمناطق سكنية ، مجموعة من المباني المتألقة المتشابهة غالية الثمن ، ثم منطقة غريبة ذات مبانٍ رمادية منخفضة ومداخن . توقف عند مستودع ضخم .

" أين نحن ؟ "

أشار إلى علامة بالروسية وترجمها " الدائرة الرسمية للعناوين " . إنه كنز .

في الداخل يوجد مئات من الصناديق الكرتونية بنية اللون مرتبة فوق بعضها حتى السقف . انطلق لقاء مائة روبلٍ صاعداً وهابطاً على السلم ، وأعطاني قفصاً متربا مليئا بالملفات .

" سيروب مرديروسيان " . ٧٥٣٤٥٦ ، ٢ ـ ٢٣٥٦ كاسبر بوليفار .

كان ابن عمي ، حسب مقاييسهم ، رجلاً ناجحاً جداً. كان لمنزله فناء صغير ، مرآبانٍ للسيارات ، ويطل على جبل " آرارات " . كان مساعداً لوكيل وزارة النقل في ديوان المركبات ذات المحرك ، عمل حقير . ولكنه يملك مرسيدس قديمة وفيات روسية الصنع لزوجته ، "آني".

" مراد ؟ " . كان لـ " سيروب " أنف عائلتي الكبير ، نظارات ، وشارب يشبه ذلك الذي يصنعونه للعرائس البلاستيكية في عيد الهالوين . " أرجوك ، تفضل بالدخول " .

" آني " ، ترتدي عدداً كبيراً من الحلي الذهبية ، تجعلها منحنية قليلاً . كان حجم غرفة معيشتهم ذات الطابع الإسبرطي في حجم غرفة نوم ابنتي ، ولكنها كانت مليئة بالكثير من الأغطية الصغيرة شرقية الصنع مبعثرة فوق أثاث الخمسينيات .

كان " سيروب وآني " يتحدثان بلغة محلية أرمينية وروسية وجدت صعوبة في فهمها . نظراً للإضافات على الكلمات . كنت أذهب إلى " مانهاتن " ثلاث مرات أسبوعياً لأتعلم قراءة وكتابة الأرمينية الأصلية ، ولكن هذه تقريباً لغة أخرى .

" يجب أن تتحدث ببطء ، فلغتي الأرمينية ضعيفة، أنا خائف " .

" بقلاوة ، يابن العم مراد ؟ " عرضت " آني "

طبقاً كبيراً من الحلوى . أخذت واحدة . دفعت بالصينية ناحيتي وفهمت أن تناول أكثر من واحدة هو المعتاد . صب " سيروب " الكونياك من زجاجة معرقة وتحدث عن العم " ديكران " و " ديجين زمروت " وشخص ما اسمه " مانوشاج " ، لا أعرف أحداً منهم . " عائلة آني " ، قال " سيروب " بفخر ، " في الولايات المتحدة " .

" كاليفورنيا " . أضافت زوجته بحياء ، وهي تملس على شعرها نحاسي اللون بيدها القصيرة السمينة المليئة بالخواتم . سألتني أين أعيش في الولايات المتحدة وابتسمت مستحسنة ، رغم أنني كنت أشك أنها تعرف شيئاً عن " بريدج بورت " . عرضت صوراً لـ " ليندا وجيني"، والبيت الذي نسكنه . على مساحة ٣٥٥٥ قدم مربع . القرميد . فزعا وهمسا بشيء لبعضهما . قهقهت " آني " بعصبية ، وأعلن " سيروب " أنهما ينهيان أوراقهما ليهاجرا.

" لماذا تريدان المجيء ؟ " سألت " سيروب " بشك. إنه رجل ثري هناك . ماذا يمكن أن يفعل في الولايات المتحدة ؟

" من أجل آرمينا " . أومأ " سيروب " إلى صورة لفتاة منكسرة بجدائل سوداء وحاجبين كثيفين . " مستقبل ابنتنا " .

كنت أفكر في الفتيات في الصف مع " جيني " . " سوف تأسفون لمجيئكم إلى أمريكا " .

بدت على وجه " آني " إمارات الخيبة ؟ الغضب ؟
أومأ " سيروب " دون وعي لزوجته ، التي بدأت في رفع أطباقنا .
" آسف . ما كان يجب أن أقول ذلك " .
لوح " سيروب " بيديه رافضاً وغيّر الموضوع . سأل عن أبي ، محله ، وطفولتي . وعندما حان وقت رحيلي تعانقنا كأصدقاء قدامى ، كأبناء عم . عادت " آني" إلى الغرفة ، وصبت في هدوء الباقي من شرابي في الزجاجة الكريستال مرة أخرى ، وتمنت لي الخير .
على الطائرة العائدة ، التقيت ثانية مع " هيج " و"جارين " . حركت قدميها الممتلئتين إلى الجانب لتجعلني أجلس على المقعد بجوار النافذة . كان المغفل العجوز نائماً . بعد الإقلاع بدأت ألاحظ رائحة غير مقبولة . لم تكن كذلك في الدول النامية ، نظراً لعدم وجود تنظيف جاف أو مزيلات رائحة لديهم ، ولكن ذلك كان كثيراً جداً. كانت هذه الرائحة من " هيج " . ربما أكل بسطرمة أو سجق ، لحوم مقددة تخترق الآن مسامه . ربما يحمل مقانق حارة في أمتعته . سعلت وحولت عنقي بعيداً عن الرائحة النتنة ، ولكن " جارين " كانت غافلة .
" كيف وجدت الرحلة ؟ "
" لطيفة جداً . وأنتِ ؟ " أومأت إلى رفيقها .
" إنه السيد هيج . هل سمعت أبداً عنه ؟ "
هززت رأسي ، محاولاً أن أحبس أنفاسي .

" إنه أكثر الشعراء والكتابقيمة . كان لي عظيم الشرف أن أقابله في هذه الرحلة " .

انفجرت " جارين " . " اسمح لي أن أريك " . فتشت في حقيبتها بلهفة وأخرجت منها كتاب جلدي بال . بينما كنت أقلب الصفحات الورقية المهترئة ، انحنت بنفاذ صبر وقلبت الكتاب من نهايته ، واضعة إصبعها عند آخر صفحة . وكان هو في أسفلها . السيد " هيج " . الشارب الكبير ، شعر اكثر سواداً ، ولكنه كان هو . وهي تبتسم كأم فخورة .

قلت " رائع ، رائع " ، نظراً لعدم وجود شئ أفضل أقوله .

نظرت إلى " هيج " . هل طرفت عيناه ؟ لاحظت براحة سماعات منتشرة ، ووضعتها باقي الرحلة حتى نهايتها . كان الوقت بعد منتصف الليل بتوقيت " نيويورك" عندما أنهت مجموعتنا الإجراءات وخرجت . سلمت " جارين علي بحرارة ، بينما انتزع السيد " هيج " حقيبته من على سير الحقائب وانطلق بسرعة ، قافزاً في إحدى سيارات التاكسي المنتظرة .

* * *

بينما كنت مسافراً ، تشاجرت " ليندا " مع السيد خاليدي " المقاول . فلقد أوقف العمل في منزلنا ،

مستشهداً بشيء من القرآن . منزلنا القديم كان مقاماً بالفعل في السوق ، منزلنا الجديد المبني نصفه ، ليس كذلك . ظللنا لثلاثة أسابيع نناقشه ليلاً ونهاراً في مسألة تعامله مع امرأة غربية . قلت له " العرب هم من يفضلون أن تمشي وراءهم النساء على بعد خمسين قدماً . وليس أنا " . ثم توقف " خاليدي " عن الرد على مكالماتي .

خلال هذا المأزق تسلمت خطاباً من " سيروب " . لم يكن من الواجب أن أفاجأ ، ولكنني فوجئت .

المناخ السياسي في الاتحاد السوفيتي يتغير يومياً ، ونجحوا في الحصول على تأشيرة خروج .

الرحلة ١١٧ الساعة ٣،٣٠ بعد الظهر . إلى مدينة " نيويورك " . هل يمكن أن يعيشوا معنا حتى يستقروا ؟ كان ذلك أسوا توقيت ممكن .

قابلت " سيروب " و " آني " و " آرمينا " في مطار " كينيدي " . لم تكن " آرمينا " تلك الفتاة الصغيرة التي في الصورة ، ولكنها مراهقة ذات مظهر حزين ووزن ثقيل . انحنى " سيروب " على ركبته ولمس مشمع الأرضية القذر.

" ما هي خططهم ، يا ريك ؟ " زفرت " ليندا " بعد أن أخذتهم لأول عشاء في " مانهاتن " . " دعهم يستقرون إذن " .

خلال الأسابيع العديدة التالية كانوا يقضون الوقت في مشاهدة التليفزيون . قررت أن أقوم بشيء لقتل

الوقت. قدت"سيروب وآني " إلى مدرسة شرق " بريدج بورت " ، ليتعلما الإنجليزية . لم تود " آرمينا " أن تذهب، وفضلت أن تبقى بغرفة " جيني " تشرب الكوكا منخفضة السعرات.

بعد الدرس ، كان " سيروب وآني " غاضبين . "لن نذهب ثانية " .

" لماذا ؟ لماذا ؟ "

" كلهم مكسيكيون " ، قالت " آني " وهي تنتحب .

" مكسيكيون قذرون " ، قال " سيروب " موافقاً .

حدقت في " سيروب " في استنكار . كان عابساً ، ذا شارب اسود ، وشعر فاحم السواد ، قصير القامة ، ويشبه " بانشوفيلا " ذاته . شرحت لهما أهمية تعلم اللغة ، ولكن كثرة النقاش لم تغير تفكيرهما .

كنت اخرج معظم اليوم ، ولكن " ليندا " كانت تغلي . طلب " سيروب " أن يستعير سيارتنا ، أرادت " جيني " أن تسترجع غرفتها ، كانت " آرمينا " تعتبر المنزل كمطعم للأكل فقط ، ورفضت " آني " أن تتحدث مع أحد . " اتصل السمسار . أرسل شخصاً ما ، ولكن كانت هناك معلبات في جميع أنحاء غرفة جيني . ألومنيوم من الحائط إلى الحائط " . كانت زوجتي تكز على أسنانها وهي تنتزع جوارب " آرمينا " من على رف المناشف . " ريك ، يجب على أحد أن يغادر ، أنا أو هم".

" لن يستمر هذا طويلاً " . كنت أعلم أن ذلك ليس صحيحاً رغم أنني قلته . لم يكن لدى ابن عمي أي خطط، ولا أي عمل متوقع . تلك الليلة سألني " سيروب " أن يتحدث معي على انفراد . طوق أكتافي بيديه الكبيرتين المشققتين . " مراد ، لا تنسى أبدا . أنت عائلتي " . استطاع أن يكون مؤثراً جداً ، ووضعت يدي على محفظتي .

حينئذ وصل إلى مربط الفرس . " نحن نعوق طريقك . نريد لشراء منزلنا خمسة وعشرون ألف دولار".

" خمسة وعشرون ألف دولار ؟ "

عقد حاجبيه وأعاد الرقم بالأرمينية . بلعت ريقي. " لا تستطيع شراء شئ لقاء خمس وعشرون ألف دولار . في سوق اليوم ، يا سيروب ؟ محال " .

" ولكن ، مراد يا بن عمي العزيز ، لو سألت ثلاثة آخرين من أقاربي سيكون لدي مائة ألف دولار " .

شعرت بالإهانة ، ولكن بعد أن أوضحت له عدم إمكانية جمع هذا المبلغ الضخم ، اسقط في يده ولم يكن هناك المزيد ليقال .

في اليوم التالي اتصل السمسار بعرضٍ مغرٍ . كان أمامي أنا و " ليندا " خمسون دقيقة لنقيم العرض .

" ريك ، أنظر إلى هذا " نادت " ليندا " من دورة المياه ، بغضب . كان البورسلين والقرميد مغطى ببقع بنية خفيفة . كانت حنة " آني " السائلة . " يا إلهي . لقد

حَصَلَت عليها تواً " . حينئذ فقط خرجت " آنـي " مـن غرفتها ، ومنشفة ملفوفة حول شعرها مثل تاج ملكي .

" نحن راحلون . إلى [جليندال] . إنه ، كيف تقولونها ؟ أكثر مما نستطيع تحمله " ألقت المنشفة وأضافت بغطرسة ، " من الفرس " .

ظللنا لباقي الأسبوع نتحاشى بعضنا . وفي صباح سفرهم ، استدعيت لهم سيارة أجرة ، وأعطيتهم ألف دولار، وودعتهم . لم أكن أشعر بالذنب . وقالت " ليندا " أنني كنت رائعاً معهم . كان ابن عمي ، ولكن لم تكن بيننا عاطفة ، ولا حب ، فقط أعطني ، أعطني، أعطني .

بقى " سيروب " على اتصال طوال العامين التاليين، وعلى الأخص من خلال كروت الكريسماس والمكالمات في المناسبات . وقد تعودت منه أن يطلب دائماً شيئاً ، منحة مثلاً .

" ابن عمي العزيز مراد " ، بدأ هكذا . " كيف حال زوجتك العزيزة وابنتك ؟ " أصبح الأمر هزلياً ، مثل لعبة ، وتساءلت أحياناً إذا كان الأمر مجرد عذر واهٍ ليبقى على اتصال .

استأجرت رداء للسهرة وطرت إلى " لاكس " . السماء مملوءة بالضباب والدخان ، كانت رياح " سانتا آنا" تتفجر بالحرارة ن والتلال مشتعلة . عيناي تلسعاني . ولا أستطيع أن أرى لمسافة قدم أمامي .

قدت عبر " هوليود الغربية " و " جليندال " -

أرمينيا الصغرى - المليئة بالمخابز ومحلات البقالة والمجوهرات ، شركات التأمين ، والشركات الصغرى . العلم الأرمني ، ذو الألوان الثلاثة البرتقالي والأحمر والأزرق ، معلق على مظلات النوافذ ويرفرف على نوافذ المحلات . عندما كنت في " أرمينيا " ، كان هذا العلم يعتبر محظوراً ، وقد اربكني مظهرهم . " أرمينيا " مستقلة ، دولة تكافح . لأول مرة في حياتي شعرت بالأسف لأن أبي لم يعش حتى يراها .

عند الغروب ، ثلاثة مراهقين يقفون عند زاوية ، يدخنون ، يضحكون ، ويشتمون . ينحنون بجينزات ملتصقة بأجسادهم وجاكيتات جلدية ، بشعور سوداء طويلة، وأجنحة غربان كبيرة ، كانوا يقصدون ويسخرون من اللوطيين ، ثم دخلوا في حالة هيستريا . كنت مسروراً أن " ليندا " و " جيني " في المنزل . فموجات المهاجرين هذه إلى " هوليود الغربية وجليندال ولوس أنجلوس " سيئة. إنهم جماعات أرمينية . الجدد منهم كبروا تحت جناح الشيوعية ، وكلهم تعودوا على مساعدة الحكومة ، ورعايتها . والسوفيت اعتنوا بهم هناك ، وقد توقعوا أن يلاقوا نفس الشيء هنا . أبي يتقلب في قبره . عندما جاء، لم يكن يتحدث كلمة إنجليزية واحدة ، فتح متجراً ، ظلت أعماله تتضاعل . ولم يأخذ أحداً منا مساعدة . أبداً .

المرأة ذات الأرجل المقوسة المرتدية رداء أسود وتعرج ، يقلد أحد الأولاد مشيتها المثيرة للشفقة على طول

الطريق . لخوفها ، أسرعت . شعرت بالخزي والعار .

تتبعت الخريطة حتى أرض الفرس ، بيوت قديمة منخفضة من الجص وأشجار مقطوعة وبراميل زيت صدئة في المداخل . " سيروب " منحني فوق غطاء سيارة رياضية حمراء .

" لقد أتيت " . وضع " سيروب " الخرقة ذات الشحوم وأخذ يدي بين راحتيه المشحمتين . لقد وجد نشاطاً يلائمه في الاقتصاد الأمريكي حيث يستبدل السيارات " الفيروس " بأخرى " بورش " مثلما يفعل زوج أخته .

" ما زلت تعمل في مجال السيارات " ، قلت ذلك كمزحة . " أردت أن أتوقف عندك قبل أن أذهب للفندق ".

أخبرني " سيروب " هناك عن ازدراء السلالات في " سانت جريجوري " ، ولكن كل شئ بخير ، " آني وآرمينا " هناك الآن . " هناك تغير – كيف تقولها – في التوقيت . تأجل الزفاف إلى الرابعة بعد الظهر ، أريد أن أطلب منك معروفاً ، يا مراد " . تردد ، وتعلقت عيناه بالطريق . " رجاءً ".

مال . كان يجب أن أتوقع ذلك . سوف يطلب المهر ، قرض لتغطية تكاليف الزفاف . تنهدت ، الأشياء بيننا لا تتغير أبداً .

" هل تقدم آرمينا إلى زوجها ؟ "

من الواضح أن وصولي أثر في ابن عمي .

"سيكون من دواعي سروري . ولكن من المؤكد أنك ...". ابتسم " سيروب " ، " إنه شرف يا مراد من قريبٍ لنا " .

وصلت إلى الفندق وفتحت الدش الساخن لأجعل البخار يتسرب إلى داخل رداء سهرتي بينما أخرجت دفتر تليفونات " لوس أنجلوس " وبحثت عن كل أفراد عائلة " مارديروسيان " والأرمن الآخرين الذين تنتهي أسماءهم بـ " ا ن " . إنه فعل روتيني أتبعه أينما ذهبت . عادة لا يوجد أي منهم . فنحن ذرية مقطوعة . " ليندا " تدعوها طاردة الديناصور . ولكن في " لوس أنجلوس " أحصيت ٤٥ شخصاً لهم نفس الاسم الأخير لاسمي ، وابتهجت.

في " سانت جريجوري " كانت " آني " تعتني بالعروس . لم أكن قد لاحظت " آرمينا " . كانت تضع ظل جفون أزرق ، أحمر شفاه مشتعل ، وثوباً غاية في الضيق . كانت تبدو منفوشة ورخيصة، بارتباك ، قبلت " آني " على خدها ذي المسحوق وعانقت " آرمينا " وقلت شيئاً عن مدى نموها . كنت أعلم أنني أبدو زائفاً ، ولكنه أفضل ما استطعت فعله .

" ولكن أين ليندا وجيني ؟ " نظرت " آني " حولها.

قدمت عذراً عن المدرسة ، والعمل . رفعت "آني" أحد حاجبيها المرسومين ، ولكن " آرمينا " لم تقل شيئاً . وجهها المصنوع كان دون أي تعبير .

" لا تتحدث الإنجليزية " ، وضحت " آني " برضا.

بينما يستعدون ، جلست في آخر الكنيسة وأخذت أتصفح جريدة المغتربين ، " وطننا " ؛ كانت معظم المقالات عن النزاع الحدودي على " ناجورنو كاراباخ " ، وجهود إعادة البناء بعد الزلزال . الصفحة الأولى تغطي أزمة نقص الوقود في " إريفان " المدمرة والناس الذين تحولوا إلى الخشب من أجل التدفئة . في الصورة ، " طريق باجراميان " ، الذي كان دائماً مورقاً ومزدهراً، أصبح مجرد أخشاب عارية .

فجأة بدأت النساء ذوات العطور الثقيلة في ثياب لامعة ومشجرة والرجال متوسطي العمر في ثياب بنية وأحذية خفيفة ، أصدقاء " آني وسيروب " ، في الدخول . كانوا يحدقون في ردائي وحذائي اللامع . شعرت أني أرتدي أكثر من اللازم ، وأنني غريب على المكان . " تستطيع أن تستأجر رداء سهرة ، وحذاء أيضاً " ، وضحت للرجل المذهول الجالس إلى جانبي يومئ .

تبدو " آرمينا " خائفة ، مثل صورتها المدرسية في " إريفان " . أخذت مكاني وقدمت لها ابتسامة مطمئنة . "آرمينا " الصغيرة سيدة متزوجة ! ما أسرع ما يكبر الأطفال ، ويتكيف الناس ويتغيرون ، ماذا كان والدي ، أو أي واحد من جيله سيعتقد في صلاتنا أنا و " ليندا " ، " سيروب " وعائلته في " كاليفورنيا " ، أرمينيا حرة ومستقلة؟ ربما الأشجار اليابسة في " باجراميان " سوف

تنمو ثانية . ربما مع الوقت سوف تصل فروعها الجافة إلى السماء وتزدهر . إنهم مثل " أرمينيا " . سوف يحيون.

بدأ الأرغن ترانيم الموكب وفجأة شحبت " آرمينا " واضطربت ، واندفعت خارجة من الكنيسة. توقفت الموسيقى والتفت " سيروب وآني " ، بقلق من التأخير . أغلق باب حجرة الانتظار وسمعت نشيج . همست " آني " بشيء ما في أذن " سيروب " ، كان يعتصره التوبيخ الذي تطلقه العيون القلقة ، أوحت عيونه بالخطر وغامت . كيف كنت غبياً إلى هذه الدرجة ؟ الزوج يبدو منظماً جداً يحتاج لمن يعدله . رجل غني ، عجوز فاسق . تذكرت ملامح السيد " هيج " العتيقة ، عيونه البارزة التي تطلق نظرات فضولية نحو " جارين " قليلة الحظ .

" يا إلهي ، " قلت لاهثاً . " لا يمكن أن تفعل ذلك. كيف ؟ " نطقت نصفها بالإنجليزية ونصفها بالأرمينية . نفس الأسنان الفاسدة . نفس الرائحة .

بدأ الضيوف يصبحون عصبيين ويزفرون .

" آه آرمينا ، يا إلهي ، ما زال يمكنك أن تغيري رأيك " . توسلت وبعد فترة بدت وكأنها الأبد فتحت الباب ببطء ، وقد بللت عيناها المحمرتان غلاف إنجيلها المزخرف . " أنت تعرف الأرمن ، سوف يحتفلون بدونك".

إنني يائس . مثلت لها شكل طائرة ، مشيراً إلى

إصبعي الذي فيه خاتم الزواج ، لوحت مودعاً ، " سوف أعيدك إلى بريدج بورت . تستطيعين إيجاد عمل و شقة. وتعيشين معنا " .

هل تخيلت أنها ترددت ؟

بارتعاشه خفيفة من رقبته الصغيرة العجفاء ، أعطى العريس الإشارة ليواصل الأرغن العزف .

" موافقة " ، زفرت " آرمينا " بخفة عندما ارتفعت الترانيم مجلجلة . أخذت ذراعي المرتجف ، وقادتني عائدة على البساط الأحمر المستدير .

- القصص مأخوذة من مجلة " آرارات ARARAT " - العدد الرابع - خريف ١٩٩٨ .

- قصص " هاجوب أوشاجان HAGOP OSHAGAN " كُتبت باللغة الأرمنية وترجمها إلى الإنجليزية كل من:

١. الآنسة إيفا : تالين فوسكرتشيان TALINE VOSKERITCHIAN

٢. قصة قبلة : آريس سيفاج ARIS SEVAG

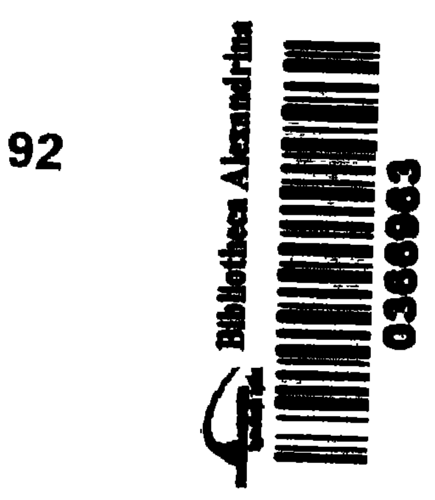
٣. المرأة التي سقطت من السماء : آريس سيفاج ARIS SEVAG

٤. الأطلال : ج . م . جوشجاريان G.M.GOSHGARIAN

قصص أرمنية

عندما يموت العالم برفق

92



ميريت للنشر والمعلومات